المُتْرَفُونَ وصِنَاعَةُ الْفَسَادِ

(إشكالية الترف في الدين والسياسة)

قراءة من منظور قرآني

الـــكـــتـــاب: **المُتْرَفُونَ وصِنَاعَةُ الْفَسَادِ**
(إشكالية التَرف في الدينِ والسياسة) قراءة من منظور قرآني

تـــأليـــف: الشيخ عارف هنديجاني فرد

نـــشـــر: جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

المُتْرَفُونَ وصِنَاعَةُ الْفَسَادِ

(إشكالية الترف في الدين والسياسة)

قراءة من منظور قرآني

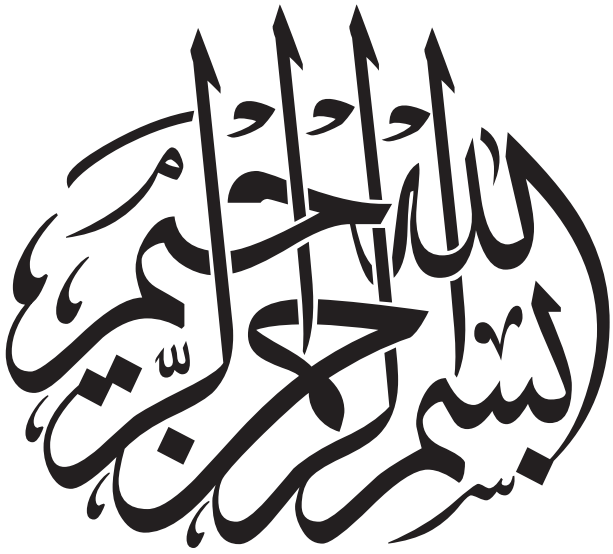
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إلى عاشق القرآن الكريم الآمر بجهاد النفس، والأعداء، ونشر العلم والثقافة.

إلى المحب لسيدي ومولاي رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

إلى الموالي لمولاي قسيم الجنة والنار حيدر الكرار عليه السلام.

إلى ناصر مولاتي الطاهرة الزهراء البتول عليها السلام.

إلى المقتدي بالسبطين الزكيّين الحسن والحسين عليهما السلام.

إلى المتمسك بالأئمة الحجج الكرام المعصومين عليهم السلام، لا سيما صاحب الزمان ومظهر الدين ومقيم العدل الإمام الحجة عجل الله فرجه جعلنا الله من أنصاره.

إلى المجاهد في سبيل الله بالميادين العلمية والثقافية والسياسية والعسكرية.

إلى حجة الإسلام والمسلمين سماحة السيد حسن نصرالله (حفظه الله).

فرج الله عنك وعن جميع المؤمنين بالنصر والمعونة في الدنيا والثواب في الأخرة.

أقدم هذا الجهد المتواضع للوصول إلى الأهداف الإلهية وأرجو من الله أن يتقبل هذا الإنجاز الصغير إنه سميع عليم.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

بسم الله الرحمن الرحيم

١- تمهيد البحث:

سبق لكثير من الباحثين أن عرضوا لموضوع الترف والمترفين في المجتمعات الإنسانية، وبيّنوا في بحوث كثيرة أن المجتمع الإنساني، سواء أكان مؤمناً متديّناً، أم لم يكن، هو عرضة لمساوئ المترفين فيما يكون منهم من أقوال وأفعال تطال كل شرائح المجتمع. وإذا كانت البحوث الإسلامية قد تناولت هذا الموضوع من زاوية قرآنية، أو دينيّة، فهي في كثير من التفاصيل لم تعرض لما يحدثه الترف وأهله من فساد في بنية المجتمع الإنساني، وقد أردنا في بحثنا هذا أن نعرض لموضوع الترف، ودور المترفين في صناعة الفساد، سواء في المجال الديني، أم في المجال السياسي، فضلاً عن مجالات أخرى كالاقتصاد مثلاً الذي تحاول هذه الدراسة أن تبيّن دور المترف ووظيفته في إفساد الوضع الاقتصادي للناس، وخاصة في طور مدنيّة الإنسان وتحضّره. ولا شكّ في أن عدم القيام بهذه الدراسة يُبقي على كثير من جوانب الموضوع مبهمة، أو غامضة، باعتبار أن جملة التفاسير القرآنية التي عرضت لموضوع الترف عرضت له من زاوية سلبيّاته في إطار العلاقة مع النبوّة من جهة، ومع الدين بما هو سنّة اجتماعية من جهة أخرى، ولهذا نحن سنحاول جاهدين أن نستوفي ما نقص من بحوث، وأن نظهر مكامن الخلل فيها على النحو الذي يجعل من دراستنا هذه دراسة مفيدة ومجدية تضاف إلى سائر البحوث الإسلامية القديمة والحديثة، التي تناولت هذا الموضوع، سواء من جهة آثاره الاجتماعية والسياسية، أم من جهة تداعياته على عقائد الناس وثقافتهم. فالترف لا يخلو منه مجتمع إنساني، وقد برّزه القرآن الكريم، ليدلّل على ما للترف والمترفين من دور

سلبي في حياة الناس، ويكفي أن نشير في هذا السياق إلى حقيقة المقابلة القائمة بين قول النبوّة وقول المترفين في القرآن الكريم، فهم أي المترفون، كانوا دائماً على رأس كل معارضة للنبّوة لا بما هم أصحاب أموال وحسب، بل بما هم أصحاب نفوذ وسلطة في حياة الناس من خلال عقائد ونظريّات ما أنزل الله بها من سلطان. ولهذا، فإنّ الغاية، كما أوضحنا في هذه الدراسة، هي معالجة النقص الموجود في تناول هذا الموضوع من زاوية قرآنية.

٢- مسوّغات اختيار الموضوع:

لا شك في أن كل بحث، أو دراسة لها مسوّغات تدفع إليها، وقد ألمحنا في تمهيدنا إلى أن الدافع إلى هذه الدراسة هو التعرّف إلى حقيقة ما تنطوي عليه الآيات القرآنية من معانٍ ودلالات في إطار ما عرضت له من علاقة سلبية دائمة ومضطّردة بين الأنبياء والمترفين، إضافة إلى ما تختزنه الآيات من حقائق حول السنن الحاكمة في ميدان التاريخ الإنساني، وهذا ما نرى أنه يمكن الإجادة فيه، لأن المترف ليس هو صاحب النعمة وحسب، بل هو الكافر بها، وقد جاء الخطاب القرآني ليدلّل على هذا المعنى، ويرشد إلى أن المترفين هم الذين يعيثون فساداً في الأرض، ويدّعون أنهم مصلحون، ولا نكاد نلحظ آية قرآنية تتحدّث عن الفساد، أو عن الترف، أو عن الاستكبار في الأرض، أو عن الطاغوت، أو عمّن استهوته الشياطين إلاّ وهي متضمّنة الإشارة إلى أكثرية مترفة من الناس تعبث بالأمن وتفسد في الأرض وتسفك الدماء. ولعلّنا لا نخطئ القول بأن جواب الملائكة حينما أُمروا بالسجود لآدم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1]، هو إشارة لطيفة إلى المترفين أصحاب النفوذ والسلطة والمال الذين يفسدون في الأرض، وليس من الغرابة في شيء أن نسوّغ لبحثنا هذا بالحديث عن الترف من خلال التوسّع في

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

معالجته للاطلاع على حقائق لم يسبق لباحثين أن عرضوا لها، أو توقفوا عندها، من قبيل شكوى الملائكة التي تُرجمت على لسان الأنبياء جميعاً فيما أرشدوا إليه من علاقات سلبيّة بين أهل الإيمان وأهل الترف، حيث دعوا جميعاً، أي الأنبياء، إلى أن يكون الناس على حذر في علاقاتهم مع المترفين لكونهم يعارضون الحق، ويمنعون من العدل، ويفسدون في الأرض...

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنَّ عرضنا لهذا البحث فيما ينطوي عليه من عناوين جديدة، وخاصة في مجال صناعة الفساد، يهدف ليس فقط إلى الدوافع والمسوّغات التي تحتّم إعادة البحث في هذا الجانب، بل تهدف أيضاً إلى وضع هذه الدراسة بين أيدي الباحثين والمفسّرين للوقوف على بعض الحقائق القرآنية التي سبق للباحثين أن توقفوا عندها، ولكنهم لم يلحظوا جوانبها المختلفة، وخاصة لجهة دور المترفين في صناعة الفساد وتهديد الأمن الاجتماعي والسياسي للناس، فضلاً عن الديني والأخلاقي. وهذا بحدّ ذاته يشكّل مسوّغاً لإعادة البحث واستخلاص بعض النتائج التي لا بدّ منها في إطار بناء العلاقات الإنسانية الإيجابية، سواء بين المسلمين أنفسهم، أم بين المسلمين وسائر الشعوب والأمم التي هي في صراع دائم ومستمرّ مع هذه المجموعة المترفة، وقد أرشد القرآن إلى هذا المعنى فيما عرض له من عقيدة ومنطق خاصّين بالمترفين، الذين يجمعهم سوء الاعتقاد وحب المال والثروة، وغير ذلك مما له دخالة بحبّ الدنيا والتلذّذ بمتاعها على حساب القيم والمبادئ الإنسانية...

٣- إشكالية البحث:

إنّ كل دراسة أو بحث لا بدّ أن تنطوي على إشكالية تدفع الباحث إلى إيجاد إجابات وحلول لها، باعتبار أن البحث لا يكون لمجرّد البحث، وإنّما بهدف استجلاء الموقف اتجاه مسألة أو قضيّة، أو مشكلة تعرض للإنسان في رؤيته للحياة، أو في

علاقاته الإنسانية، أو في نظريّاته عن الكون والخلق والحياة.

وهكذا، فإنّ معنى إيجاد حلّ لمشكلة ما، هو المسوّغ للبحث، وليس خفيّاً على أحد من أهل العلم والمعرفة أنّ أكبر مشكلة تواجه المجتمعات الإنسانية منذ القدم هي مشكلة الترف والمترفين في الحياة الإنسانية، وقد بيّن القرآن هذا المعنى بما يوحي أن المترفين ليسوا حالة طارئة في الاجتماع الإنساني، بل هم حالة متجذّرة في المجتمع، بدليل ما عرض له القرآن من علاقات سلبية بين الأنبياء والمترفين، حيث نجد قوّة الصراع على أوجّها في كل زمان ومكان بين النبوة والمترفين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1] .

وهذا يؤكّد على أن المجتمع الإنساني كان وسيبقى عرضة لهؤلاء المترفين في مواجهة الأنبياء والصالحين، باعتبار أنهم أصحاب مشروع في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فضلاً عن الدين، وليسوا مجرّد أشخاص يطمحون إلى أن تكون لهم حالات متميّزة، وإنّما هم يمثّلون رؤية ويحملون نظرية، ويؤكّدون على دورهم في استخدام الناس لحساب نفوذهم ومشاريعهم السياسية والسلطوية، ولعلّ هنا مكمن المشكلة الأساسية. وقد عرض القرآن لهذه المشكلة في إطارها الاجتماعي والسياسي والعقائدي، وهو فيما عرض له يؤكّد على الطابع الإنساني الهادف إلى تحرير المجتمع الإنساني من نفوذ المترفين، ويمكن لنا أن نعرض المشكلة في شكل تساؤلات، وأهمّها.

لماذا يظهر القرآن هذه العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين؟

وهل قدر النبوّة دائماً والصالحين من عباد الله تعالى أن يواجهوا المترفين للحيلولة دون انتصار رؤيتهم للحياة والخلق والوجود؟ وهل يمكن للإنسان أن يكون بمنأى عن تأثيراتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

وكيف يؤسس القرآن لنظرية الإصلاح في مواجهة المترفين؟

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

ولعلّ السؤال الأبرز في طرح المشكلة يكمن في التساؤل الآتي: لماذا تنسب إلى المترفين صناعة الفساد في المجتمع، باعتبار أنهم ليسوا مجرّد أناس يصيبون ويخطئون في ممارساتهم وعلاقاتهم، وإنّما هم أهل قصد وعزيمة ومشروع هادف قائم على الوعي بالأهداف المنشودة؟

هذه هي حدود المشكلة، أن المترفين هم أهل صناعة وتدبير، وليسوا مجرّد أشخاص تستهويهم المصالح والغايات الدنيوية، وما نريد الإجابة عليه وطرح الفرضيّات بشأنه هو هذا، أن نتعرّف إلى مشروع هؤلاء، وإلى ما يعتمدونه من أساليب في مواجهة الأنبياء وأهل الإيمان، وقد سبق للمفسرين والباحثين في النظريات الإسلامية أن خلصوا إلى نتائج مهمة في سياق معالجتهم لهذه المشكلة، وما يمكن أن يضاف إلى بحوثهم هو التعرّف إلى مزيد من الحقائق، وخاصة في مجال الرؤية الموضوعية لكثير من الآيات القرآنية، وما جاءت به من سياقات تخرج الترف عن كونه حالة ليكون مشروعاً يُخشى منه دائماً على أهل الصلاح والإصلاح في المجتمع الإنساني، وخاصة في المجتمع الديني.

٤- منهج البحث:

لقد تقدّم الكلام في أن لكل بحث، أو دراسة مشكلته الخاصة به، ومثلما أنّه على الباحث أن يتعامل مع هذه المشكلة في ضوء ما هو ثابت ومتغيّر في الرؤية الدينية، كذلك، فإنّ لكل باحث منهجه الخاص به، باعتبار أنه لا بدّ من اختيار الطرق والأساليب التي تتيح للباحث باختيار ما يناسب بحثه. وإذا كان موضوع بحثنا هو الترف والمترفون وما لهم من دور في صناعة الفساد، فإنّه لا بدّ من اختيار المنهج الملائم لهذه الدراسة التي اختير لها أن تكون دراسة من منظور قرآني. فإن قلنا: إن المنهج الذي يسمح بمناقشة ومعالجة هذا الموضوع هو المنهج الاستقرائي، أو المنهج المقارن، أو المنهج التحليلي، فإنّ هذه المناهج كلها يمكن أن يحتاجها الباحث

في دراسته القرآنية، وذلك انطلاقاً من كون الدراسة هي ذات طابع موضوعي يأخذ الآيات القرآنية لا على نحو ترتيبي، وإنّما على نحو موضوعي هو الترف والمترفون، وهذا ما يقتضي من الباحث أن يكون على وعي كامل بالطريق والمنهج الذي يوصله إلى الغاية المرجوّة من بحثه. ولا شكّ أن القرآن يرشد إلى هذا المنهج القويم من خلال طريقة وأسلوب عرض الآيات القرآنية ذات الصلة بموضوع الترف.

وهكذا، فإننا نرى ضرورة لأن نعتمد الخطوات العملية التي تساعد على اكتشاف منحى القصة القرآنية، أو الأهداف التي نريد تبيانها من خلال خلاصة القصة القرآنية، إذ إنّ هناك فرقاً كبيراً بين المنهجية التجزيئية التي تبحث عن الآية كآية، وبين المنهجية الجمعيّة التي تنظر إلى السورة الواحدة كمجموع، وقد رأى بعض الباحثين أن التفسير الموضوعي هو اعتماد الجمع بين الآيات والمواضيع، وبين هذين الجمعين فرق. فالجمع بين الآيات غير الجمع بين المواضيع، فالأول يعني تفسير آية بآية، أما الجمع بين الموضوعات، فهو اعتماد جمع الآيات وترتيبها على أساس موضوعٍ ما،.. ففي البحث عن قصة نوح نجد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1]. فكيف عرف نوح بأنهم لن يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً، هنا تأتي آية أخرى تفسّر هذا الإشكال وتقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2].

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن المنهج الملائم لاكتشاف حقيقة العلاقة بين المترف وما له من آثار في المجتمع وبين ما يختزنه القرآن من رؤية، هو المنهج أو الاتجاه الموضوعي الذي من خلاله يمكن ملامسة حقيقة ما ترمي هذه الدراسة إلى تبيانه والتجديد فيه، والله وليّ التوفيق.

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ – ٢٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٦.

الفصل الأول

الترف والمترفون:
المفهوم والدلالة

تمهيد الفصل

١ - المبحث الأول: الترف في اللغة

٢ - المبحث الثاني: مفهوم الترف ودلالاته

٣ - المبحث الثالث: الترف والمترفون في القرآن

أولاً: عقيدة المترفين

ثانياً: منطق المترفين

أ - منطق المترفين في الدنيا

ب - منطق المترفين في الآخرة

تمهيد الفصل

قد يتبادر إلى ذهن الكثيرين من باحثين وغيرهم أن المقصود بالترف والمترفين في القرآن هم أصحاب المال والنعم التي يمنّ بها على الإنسان، وهذا مما له وجوه من المدح في آيات الله تعالى، باعتبار أن المال وسائر النعم الإلهية هي من الزينة التي لا تقوم الحياة الإنسانية إلاّ بها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1]. فالآية ناظرة إلى حقيقة ما تتقوّم به الحياة من مال وولد ونعم مادية ومعنوية، وما كانت الدنيا لتستقرّ إلاّ بها. وعليه، فإنّ معنى أن تكون مترفاً أن تتجاوز بما أنعمه الله عليك طاعة الله إلى المعصية، بأن تكتنز الذهب والفضة لتصدّ بها عن سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

وانطلاقاً مما تقدّم، نمهّد لهذا الفصل بملاحظة جملة الآيات التي تعرض لموضوع الترف والمترفين بحيث نتمكن من معرفة الحقائق التي تلحظها وتستنبطها هذه الآيات؛ على النحو الذي نستطيع معه أن نظهّر موضوع الترف وعلاقته بكثير من العناوين القرآنية، مثل الاستكبار، والعلوّ، والفساد، وغير ذلك من العناوين التي لها علاقة مباشرة، أو غير مباشرة بموضوع بحثنا. وقد يكون من المناسب جداً أن نمهّد لهذا الفصل بالتعقيب على كثير من المفاهيم القرآنية التي سبق لباحثين مسلمين

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

وغير مسلمين أن تعرّضوا لها في ضوء ما تناولوه من بحوث إسلامية، فنقول: إنّ الترف ليس ظاهرة طارئة في حياة الإنسان، ولا هو مما يمكن تجاوزه أو التساهل بشأنه لكونه يشكّل حقيقة معاشة في كل اجتماع بشري، ولعلّ ما عرض له القرآن من علاقات سلبية بين الأنبياء والمترفين كاشف عن هذه الحقيقة، باعتبار أن المترفين، بما هم أصحاب نفوذ ومشاريع سلطوية كانوا دائماً في طليعة المعارضين للمشروع الإلهي التي تحمله النبوّة. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] دليل حيّ وساطع على أن المترفين هم سبب كل جهل وفساد في المجتمع الإنساني، وقد تجاوز الحال بالمترفين إلى أن يكونوا في طليعة من يواجه المشروع الإلهي من خلال استثمار ليس المال وحسب في مشروع الصدّ عن سبيل الله وتعاليمه، بل تجاوزوا ذلك إلى أن يكون الدين أيضاً، بما هو سنّة اجتماعية، سبيلاً للترف[2]، على نحو ما بيّن فرعون في مواجهة مع النبي موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[3].

وكيف كان، فإنّنا نمهّد لهذا الفصل إلى ما يعنيه الترف في القرآن بكل ما يلابسه من عناوين ومفردات أخرى، وهذا ما يقتضي منّا أن نعرّف الترف أولاً، سواء من حيث اللغة، أم من حيث المفهوم، قبل أن نعرض لتفاصيل العناوين الكبرى، التي نرى أنّه لا بدّ من ملاحظتها والتوقف عندها لتبيان بعض الحقائق التي غفل عنها البعض، أو تجاوز عنها ظنّاً منه أنها لا تتجاوز الإطار الفردي، أو الحالة الحياتية المعاشة للإنسان المترف، سواء أكان فرداً، أم جماعة، أم مجتمعاً؛ فالترف الذي نبحث عنه هو الذي يمكن استفادته من سياق الآيات القرآنية بما هو مشروع هادف

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٢) يقول الطباطبائي: «إنّ الدين في عرف القرآن هو السنّة الاجتماعية الدائرة في المجتمع، وهذه السنن، إمّا دين حقّ فطري وهو الإسلام، أو دين محرّف عن الدين الحق وسبيل الله عوجاً».
انظر: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص١٨١.

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٦.

إلى مواجهة الأنبياء والصالحين، وبما هو مشروع إفساد في الأرض.

وقد زعمنا فيما تقدّم أنّ الملائكة حينما أشاروا إلى الإفساد في الأرض. وإلى سفك الدماء في موضوع استخلاف آدم على الأرض، إنّما لحظوا هذه الحقيقة الأرضيّة إذا صحّ التعبير، حقيقة أن المترفين لا يمكن أن يكونوا خلفاء في الأرض في الوقت الذي يقوم الملائكة بالتسبيح لله تعالى. وقد جاء الردّ الإلهي بأن المستخلف ليس هو هذا المترف، وإنّما هو الإنسان الذي يعقل عن الله تعالى، ويرضى عن فعله أهل السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا ما سيكون بعونه تعالى مثار البحث والجدل في هذا الفصل لعلّنا نوفّق إلى مزيد من الحقائق الإلهية الكامنة في ما جاء به الأنبياء عند ربّهم، ذلك هو ما نروم معالجته والتساؤل بشأنه لكون المترفين في القرآن، كما أسلفنا، هم الجهة المقابلة للمشروع الإصلاحي، بل لمشروع الهداية الإلهية في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

المبحث الأول: الترف في اللغة

قال ابن منظور: «**ترف: التَّرف: التنعُّم، والتُّرفةُ النعمةُ، والتتريف حسن الغذاء...والمُترفُ: الذي قد أبطرته النعمة وسَعة العيش، وأترفته النعمة أي أطغته.. وفي الحديث: إن إبراهيم، فرَّ به من جبار مترف، وقوله تعالى: «﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ...﴾؛ أَي أُولو التُّرْفة، وأراد رؤساءها وقادة الشرّ منها**»[2].

وقال الطريحي في مجمع البحرين في معنى ترف، قوله تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ ...﴾ أي نعمناهم وبقيناهم في الملك، ومثل قوله تعالى: ﴿أُتۡرِفُواْ﴾، أي الذين نعموا في الدنيا بغير طاعة الله، والمترف: المتروك يصنع ما يشاء، وإنما قيل للمتنعم مترف

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (لا ت) ج١، ص٤٢٩.

لأنه لا يمنع من تنعمه، فهو مطلق فيه...»[1] وإلى مثله ذهب الراغب الأصفهاني في مفرداته، فرأى أن المترف هو المتنعم بملاذ الدنيا، فيقال أترف فلان، فهو مترف، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه، وهم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[2]، والتُرفةُ: التوسّع في النعمة...»[3].

إنّ كلام أهل اللغة يوضّح بما لا لبس فيه أن أهل الترف هم الذين بدّلوا نعمة الله كفراً،سواء في مجال العقيدة، أم في مجال السلوك العملي، ولا يُستفاد من كلام أهل اللغة والاصطلاح، حصر أهل الترف بالرؤساء وقادة الشرّ، وإنّما الذي أوضحه الطريحي في تعريفه للترف بأنه التنعم في الدنيا بغير طاعة الله تعالى، وهذا التنعم مثلما أنه ينطبق على قادة الشرّ، فإنّه ينطبق على كل مترف بدّل نعمة الله كفراً، وقد يكون هذا المترف فرداً أو جماعة، أو مجتمعاً، أو سلطة حاكمة، كما هو حال وشأن السلطات التي تعاقبت على حكم المسلمين وغيرهم في تاريخ الإنسان، ومن هنا يمكن لنا أن نميّز بين النعمة بما هي نعمة أفاضها الله تعالى على الإنسان لتكون في سبيل الله تعالى، وبين التُّرفة بما هي شهوة ولذّة وخروج عن طاعة الله تعالى، وكثير من الناس ممّن بدّلوا النعمة إلى ترفة، فحقّ عليهم القول وكانوا قوماً بوراً...

المبحث الثاني: مفهوم الترف ودلالاته

يقول الإمام علي في وصف الدنيا: «**إنها دار كتب الله لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء... وقد عجلت للطالب، والتبست بقلب الناظر، ويظنّ ذو الثروة الضعيف... فارتحلوا منها يرحمكم الله بأحسن ما بحضرتكم، ولا تطلبوا منها أكثر من القليل، ولا تسألوا منها فوق الكفاف، وارضوا منها باليسير ولا تمدُنَّ أعينكم منها إلى ما متّع المترفون به، واستهينوا بها ولا توطّنوها، ولا تطلبوا**

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، دار المرتضوي، طهران، ط٣، ١٤١٧هـ، ج٥، ص٣٠.
(٢) سورة الفجر، الآية: ١٥.
(٣) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، (لا ت)، ص٧٠.

منها أكثر من البلاغ، وإيّاكم والتنعّم والتلهّي والفاكهات... إنّ الدنيا قد تنكّرت وأدبرت واحلولت وأذنت بوداع، ألا وان الآخرة قد رحلت فأقبلت وأشرفت وأذنت باطلاع...»[1].

لا شكّ في أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام كاشف عن ما يعنيه حبّ الدنيا والتنعّم فيها إلى حدّ الترف والتلهّي، فهو عليه السلام يبيّن أن الترف، كما جاء في المعنى اللغوي، يمنع من التبصّر بحال الدنيا وما هي عليه من فناء وجلاء والتباس على الناظر إليها والمتمتّع فيها. إن في كلام الإمام عليه السلام ما يرشد إلى حقيقة ما جاء به القرآن عن الترف والمترفين لجهة التلبّس بالدنيا والاستغراق فيها، هذا فضلاً عن كون كلامه هو استنطاق للآيات القرآنية وما تختزنه من مفاهيم ودلالات عن الترف والمترفين، ولعلّ أهمّ ما يمكن استظهاره من كلام الإمام علي هو دعوته إلى صرف النظر والقلب عمّا متّع به المترفون فيها، وهذا هو المفهوم الحقيقي لمعنى الترف، الذي يدفع بالإنسان إلى الاستغناء بالدنيا عن الأخرة، والركون إلى ما هو زائل ومدبر، وقد ورد في القرآن ما يدعو النبي إلى الاكتفاء برزق الله تعالى، الذي هو أبقى مما يتطلّع إليه أهل الترف في الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

وهذا هو في الجوهر، مفاد كلام الإمام علي في قوله «**ولا تمدّنّ أعينكم منها إلى ما متّع المترفون به...**». فإنه زهرة الحياة الدنيا، هذا فضلاً عن كونه فتنة للمتمتّع به، سواء أكان فرداً أم جماعة أم مجتمعاً...

إنّ معنى الترف، ومفهومه، هو هذا، أن يتخذ الإنسان من التلهّي والفكاهة بديلاً عن رزق الله تعالى، الذي هو خير وأبقى، فإذا كان مفهوم الترف هو هذا، فلا يبقى أن نقول إلاّ أنّ هذا المفهوم يستجمع أهل الترف ليكونوا تعبيراً عمّا هو زائل

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٣هـ، ج١، ص٥١٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

وفانٍ ولا بقاء له، وهذا ما يكشف لنا عن الدور والوظيفة التي يقوم بها المترف في المجتمع الإنساني، إذ هو يدعو، أي المترف، أصحابه ليكونوا من أصحاب السعير في الآخرة، تماماً كما هم أصحاب شيطان في الدنيا.

نعم، ليس للترف مفهوم إيجابي، بحيث يقال: إنّ المترفين هم أصحاب النعم وقد خصّهم الله تعالى بها لاستحقاقهم لها، وإنّما هي فتنة، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وهذا الابتلاء، قلّما ينجو منه مترف في الحياة الدنيا. ولا شكّ في أن الآيات القرآنية حافلة بمثل هذه الدلالات والمفاهيم عن الترف والمترفين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ...﴾. وليس بعيداً من هذا ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة من أن المترف هو سبب كل أزمة مالية، أو اقتصادية، أو اجتماعية في أي مجتمع إنساني، سواء أكان متديّناً، أم لم يكن، وهذا ما سيتمّ لحاظه في مباحث هذه الدراسة، حيث سنرى كيف أن من معاني الترف ودلالته أنه يخرج الإنسان من كونه عبداً لله، ليكون عبداً للدنيا والطواغيت وقادة الشرّ في المجتمع.

إذن، قادة الشرّ ورؤساء القوم هم المترفون الذين يستعبدون الناس ويستخفون بهم ليكونوا عبيداً لهم، وليس من المصادفة في شيء، ولا من الفراغ في شيء أن يركّز القرآن الكريم على الدور السلبي للمترفين في مواجهة الدعوى النبوية.

يبقى أن نقول: إنّ مفهوم الترف يمكن استجلاؤه من الرؤية القرآنية العامة حول الترف والمترفين، طالما عرفنا أن الترف، كما بيّن أهل اللغة، هو التنعم بالملذّات والشهوات، والاهتمام بملاذ الدنيا وحطامها الزائل على حساب القيم والمبادئ السامية، وكل إنسان، أو مجتمع، أو أمّة تأخذ منه الدنيا مأخذها، وتبلغ منه مأملها، هو إنسان مترف يعصي الله تعالى فيما أنعم به عليه وابتلاه به. إنّه إنسان متروك يصنع ما يشاء، لا تهمّه معصية، ولا تستهويه قيمة، ولا يمنع من تنعمه شيء، كما أفاد الطريحي، وكل إنسان، أو أمّة، هذا شأنه لا بدّ أن تكون عاقبته الخسران لا لنفسه وحسب، بل للمجتمع الذي يعيش فيه، وذلك كله إنما يمكن استفادته مما

تجمع عليه النصوص والتجارب من أن أهل الترف، بما يمثلونه من رؤية ومشروع، وبما يحملونه من أهداف، ليس لهم غاية وراء أطماعهم وأهدافهم الدنيوية سوى التفنّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة على حدّ تعبير ابن خلدون»[1].

ولهذا فإنهم، أي المترفون هم أهل صناعة فاسدة في المجتمع الإنساني، هذا فضلاً عن كونهم الجهة المقابلة دائماً لمشروع الحق والعدالة، وهذا هو أهم مفهوم يمكن ملامسته في تعريفنا للترف والمترفين،... سواء من حيث اللغة، أم من حيث المعنى والمفهوم، ولعل البحوث القادمة تعالج مفهوم الترف بالشكل الذي يكشف عن كثير من المفاهيم والمدلولات التي لا بدّ من التعرّف عليها فيما نرى أنه بحث ورؤية جديدة...

المبحث الثالث: الترف والمترفون في القرآن:

إن منهج هذه الدراسة، كما بيّنّا في كلامنا حول المنهج، ليس تفسير آية بآية أخرى، وإنّما تفسير الآيات بلحاظ الاتجاه الموضوعي الذي يتقدّم خطوة على الاتجاه التجزيئي على حدّ تعبير الشهيد الصدر[2] إذ هو يرى أن هذا الاتجاه يسمح للباحث بالتعرف إلى الموقف الإسلامي من عقائد المترفين وسلوكهم في المجتمع في ضوء التجارب الإنسانية، وقد لحظ القرآن هذا المعنى في إطار تجربة الأنبياء

(١) لقد بيّن ابن خلدون في مقدمته أن طبيعة الملك تقتضي الترف، فالفقير يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في الأجيال إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده،... فالترف مُفسدٌ للخَلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة، وخاصة في أجواء الحضارة ومناخاتها، إذ إنّ الحضارة هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع... فالحضارة، كما يرى ابن خلدون، من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة... انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج، (لا ت)، ص١٦٧ ١٧٠.

(٢) يرى الصدر أن التفسير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية، بينما الموضوعي يطمح إلى أكثر من ذلك، فهو يحاول أن يستحصل أوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية... ومن خلاله يصل المفسر إلى نظرية قرآنية عن النبوة مثلاً، وعن سنن التاريخ... إنه منهج يوحّد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم، ويبدأ من الموضوع الخارجي وينتهي إلى القرآن الكريم. انظر: الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي في المدرسة القرآنية، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٣٠ ٣١.

مع المترفين، وخاصة في التجربة الإسلامية، حيث أظهر القرآن حقيقة ما للترف من آثار سلبية على حياة الناس وعقائدهم، وهذا ما يمكن تلمّسه من خلال السياق العام للآيات القرآنية، فهي حيث ذكرت تعطي دلالة واضحة على أن سبب هلاك الأمم وموتها هو استحكام الترف بها، وقد سبق للشهيد الصدر أن قدّم بحثاً فريداً في موضوع السنن الحاكمة في حياة الناس مبيّناً ما لهذه السنن من حاكمية في ميدان التاريخ وتحولات الإنسان، مقسّماً هذه السنن إلى ما هو مشروط، وما هو ناجز، فضلاً عمّا لبعض السنن من اتجاه موضوعي، وهذا ما أدرجه الصدر تحت عنوان أشكال السنن وما لها من خصائص[1].

(١) يرى الصدر أن السنن تأخذ أشكالاً عدة، الشكل الأول، هو شكل القضية الشرطية التي تؤكد على العلاقة الموضوعة بين الشرط والجزاء، مثال هذا الشكل: إن الماء إذا تعرض للحرارة وبلغت الحرارة درجة المائة مثلاً في مستوى معيّن من الضغط، سوف يحدث الغليان، ومثال هذا من القرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فالصدر يرى أن القانون بيّن في هذه الآية بلغة القضيّة الشرطية، ومن الأمثلة أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، إنّ هذه الآية تتحدّث بلغة القضية الشرطية على سنّة من سنن التاريخ، فالآية تربط وفرة الإنتاج بعدالة التوزيع.
أمّا الشكل الثاني من أشكال السنن، فهو الذي يتخذ شكل القضية الفعلية المتميزة المحققة، ومثاله العالم الفلكي حينما يصدر حكماً علمياً في ضوء قوانين مسارات الفلك، وبأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني، هذه قضية علمية، وهو شكل، كما يرى الصدر، لم يصغ بشكل القضية الشرطية...
يبقى الشكل الثالث من أشكال السنن، وهو شكل، كما يرى الصدر، اهتمَّ به القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وهو السنّة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ، ومثاله أن الإنسان يمكنه أن لا يصلّي وأن لا يصوم، لأنّ وجوب الصوم والصلاة حكم تشريعي وليس قانوناً تكوينياً، لكنه لا يمكنه أن يتحدّى القوانين الكونية والسنن الموضوعية... وهناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ ومسارات الإنسان يمكن أن تقبل التحدّي ولو على شوط قصير، مثال ذلك: نقول: إنّ هناك في تركيب الإنسان وتكوينه اتجاهاً موضوعياً لا تشريعياً إلى إقامة علاقات معيّنة بين الذكر والأنثى في المجتمع... وقد أمكن لقوم لوط أن يتحدّوا هذه السنّة فترة من الزمن، فهذا اتجاه موضوعي ركب في طبيعة الإنسان، وهو سنّة على مستوى الاتجاه لا على مستوى القانون.
يبقى أن نشير إلى ما ذكره الصدر عن خصائص عرض لها تحت عناوين وحقائق ثلاث: حقيقة الاطراد، وحقيقة الربّانية، وحقيقة اختيار الإنسان.
را: الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن، صياغة محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف، بيروت، ط١٩٨٣، ص٨٩ – ٩٠.

وكيف كان، فإنّ هذا الاتجاه الموضوعي لفهم آيات القرآن من خلال السياق الذي جاءت فيه، لا بدّ أن يؤدّي بالباحث إلى الظفر بجملة من المفاهيم والدلالات، فضلاً عن الحقائق التي يريد الله تعالى تبيانها للناس ليكونوا على بيّنة مما هم فيه، ويأخذوا بالشرائط والأسباب التي تساعدهم على اختيار ما يلائمهم في طريق سعيهم للفوز بالسعادة من خلال التخلّص من المترفين ومساوئهم، طالما أن الفساد في المجتمع لا ينفكّ عن وجودهم، باعتبار أنّ القرآن لم يأتِ على كلمة الترف إلاّ بالذم، وكما بيّن العلاّمة مغنية، أنّ كلمة الترف والمترفين حيث وردت في القرآن، فهي ترمز إلى الفساد والهلاك. وأنّ أي مجتمع يوجد فيه مترفون، فهو مجتمع يعيش في ظلّ نظام فاسد، لأن وجود المترفين كوجود السرطان في الجسم، والمسؤول الأول عن وجود الفاسدين في المجتمع هو المجتمع بالذات...[1].

وهكذا، فإنّ معنى أن يكون المجتمع مترفاً، معناه أن يختار الناس بإرادتهم سلوك سبيل المترفين، لأنّ إرادة الناس واختياراتهم لا تتنافى وسنن الاجتماع والتاريخ، إذ إنّ كل أمر في التاريخ وميادينه هو متوقف على إرادة الإنسان، وهذه الإرادة، كما بيّن الصدر، لا تتعارض مع السنن التاريخية. باعتبار أنّ ما يمكن فهمه عن السنن الناجزة، هو غير ما يمكن فهمه عن السنن المشروطة التي أشار إليها القرآن وربطها بفعل الإنسان واختياره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إنّ استنطاق جملة آيات الترف في القرآن، ومن خلال السياقات التي جاءت بها، يحتّم على الباحث أن يكون على رؤية موضوعية للأحداث والقصص التي عرض لها القرآن، ولعلّ هذا هو الذي حملنا على أن نعتمد التفسير الموضوعي لكونه أوسع دلالة من أي تفسير آخر، فهو تفسير يستنطق القرآن في ضوء القصة القرآنية

(١) انظر: مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨١، ج٥، ص٣٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

بما تحمله من تجربة إنسانية، باعتبار أن القرآن تبيان لكل شيء، وهو في موضوع الترف والمترفين يبيّن الحقائق وكل ما له علاقة بالإصلاح والهداية[1]، وهنا تجدر الإشارة إلى جملة من الآيات عن المترفين لمعرفة السياق الذي جاءت فيه، إضافة إلى ما تحمله من هداية للإنسان، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

فالآية الأولى، كما نلاحظ، تهدي إلى أن الناس لا يزالون بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وآمنوا بالله تعالى، وأنّ الترف يقود الناس إلى الإجرام، إضافة إلى نجاة القليل من الناس ممن أنجاهم الله بما أصلحوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فالآية لا تفيد أنّ الهلاك تام وشامل وإنّما تلحظ مصير أولئك الذين ظلموا، أما مَن لم يظلم ولم يبدّل نعمة الله كفراً باتخاذ اللهو واللعب والترف سبيلاً للإفساد، فهؤلاء، وهم قليل، لا ينالهم سوء، ذلك أنّ الله تعالى لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، فالآية هي ذات مدلول سياسي واجتماعي فيما جاءت به من سياق

(١) أجمع العلماء والمفسرون على أن القرآن هو كتاب هداية وتغيير، وبما أن القرآن يهدي إلى التي هي أقوم، فإنّ معنى ذلك أن القرآن يهدي إلى السبل الكفيلة باستخلاص الحقائق، ولعل الاتجاه الموضوعي هو أقوم الطرق لاكتشاف حقائق القرآن لكونه يركّز على التجربة التاريخية وما هي محكومة له من سنن، وقد بيّن المفسّرون أنّ هذا الاتجاه أي الموضوعي يحتاج إلى طرق عدّة للوصول إلى أي موضوع في القرآن، وهذا ما أشار إليه توفيق العامر من خلال تركيزه على تفكيك الموضوعات القرآنية واستنطاقها على النحو الذي يمكن الباحث من كشف ما تهدي إليه من حقائق، وخاصة في مجال القصص القرآني.

انظر: توفيق العامر، مدخل إلى علم التفسير، دار البيان العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٣٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

لكون الآيات تبدأ من الأمر بالاستقامة للرسول ﷺ، ثم تنهى عن الركون إلى الظلمة وتأمر بالصبر، ثم التأكيد على أنّ الله تعالى، ما كان ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

وهكذا، فإنّ السياق فيه ما يفيد أنّ الناس لهم قدرة وخيار أن يكونوا بمنجاة من الهلاك فيما لو أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولم يتّبعوا ما أترفوا فيه، وهذا بخلاف ما لو اتبع الذين ظلموا ما أترفوا واختاروا الركون إلى الظلمة، فإنهم بذلك إنّما يكونون قد اختاروا الإفساد في الأرض، كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ولا شكّ في أنّ مفاد هذه الآية ناظر إلى ما يختاره المترفون من رؤية ومنطق ووسائل لمواجهة الأنبياء. فهم اختاروا بإرادة ووعي أن يكونوا في مواجهة الأنبياء، وهذا ما يمكن ملاحظته في سائر الآيات والقصص التي عرض لها القرآن عن المترفين، حيث نلاحظ أن السياق لا يختلف بين قصة وأخرى وإنّما الذي يختلف هو الأشخاص والأزمنة. على نحو ما سنبيّن لاحقاً. فقد يكون الحديث عن موسى عليه السلام أو عن إبراهيم عليه السلام أو عن محمد ﷺ، وقد يكون لكل قصة منحاها التي تريد الكشف عنه، ولكن السياق العام لآيات الترف هو سياق واحد ذو مدلول واحد وحقيقة واحدة، يهدف القرآن من خلاله إلى بيان حقيقة أن الترف مفسد للخَلق والخُلق، ومؤدّي إلى الإفساد في المجتمع. وإذا كان هناك من وظيفة للرسول، فهي مواجهة هذا الترف بكل مفاعيله الاجتماعية والسياسية والثقافية للحيلولة دون أن يكون له آثار سلبية يمكن أن تؤدّي بالمجتمع إلى الهلاك، كما بيّن الله تعالى فيما ذكره عن سنن خاصة بأهل الباطل، وما حقّ فيهم من قول أو فعل من قبيل تزيين الأعمال، والإمهال، وزيادة الضلال والذنوب، والعذاب، والاستئصال، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1].

غاية القول، إنّ الهدف من وراء ما عرضنا له هو الدعوة إلى ملاحظة سياق الآيات في إطار الرؤية والاتجاه الموضوعي في ضوء التجربة التي يعرض لها القرآن الكريم بمعزل عن الأشخاص والأزمنة، لأنّ التحدّث عن موضوع الترف والمترفين، هو حديث واحد، ويكشف عن حقيقة واحدة، ذلك أن القرآن، كما أفاد العلماء والمفسّرون، هو كتاب هداية وإصلاح، وليس كتاباً علمياً يقدّم النظريات العلمية، وإنّما كتاب يهدي إلى التي هي أقوم في اكتشاف الحقائق التاريخية وما يتحكم بها من السنن في ميدان التاريخ. وهذا ما سنحاول التوقّف عنده مليّاً في هذا البحث لجهة التأكيد على أنّ المترف ليس هو ذاك الإنسان المتميّز في شركهِ أو كفرهِ أو عبادته وحسب، وإنّما هو الإنسان الذي بدّل نعمته كفراً، سواء في مجال الاعتقاد والأخلاق، أم في مجال السلوك والعمل، سواء في قوله أم فعله، أم ماله، فهو إنسان مترف قد يكون فرداً أو جماعةً أو مجتمعاً، أو دولة، قد يكون حاكماً، أو محكوماً، باعتبار أن المترف هو صفة المتنعّم في ماله وجسمه وفي كل ما له من حالات أنعم الله تعالى بها عليه، ولكنه أساء استخدام هذه النعم وأفسد في الأرض.

ومن هنا، نرى ضرورة لأن نلحظ معنى الترف والمترفين في سياق الحديث عن الاستكبار والطاغوت؛ إضافة إلى العلم والعلماء الذين اشتهروا بالترف، وخاصة في تجربتنا الإسلامية، حيث نرى إنّ الأحاديث والروايات تحذّر من اتخاذ الفقيه الذي دخل في الدّنيا أن يكون واعظاً ومرشداً، أو دليلاً إلى الحق، كما جاء عن رسول اللهﷺ: بقوله: «**فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم**»[2].

لقد ذهب بعض أهل اللغة، كما رأينا في مبحث اللغة إلى القول بأن المترفين

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) را: الحلّي، الحسن بن يوسف، تحرير الأحكام، تحقيق إبراهيم البهادري، إشراف جعفر سبحاني، مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط١، ١٤٢٠هـ، ج١، ص٣٣.

هم قادة الشرّ، أو رؤساء القوم، وتابعهم في ذلك بعض المفسّرين، على اعتبار أن القائلين بالباطل: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾هم رؤساء القوم، الذين تنكّروا للدعوة النبوية، ولا دليل على هذا الحصر طالما أن التابع والمتبوع في منظومة الترف هم جميعاً ممن ينطبق عليهم هذا القول، بدليل ما ساقه القرآن من حوار بين المترفين، سواء أكانوا مستكبرين، أم مستضعفين فهم يتلاومون فيما بينهم، ويلقون بالتبعات على بعضهم البعض، وتكون النتيجة أسرار الندامة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

إنّ الحوار بين المترفين، كما هو مفاد الآية، لا يستثني أحداً منهم، سواء أكانوا فقراء، أم أغنياء، وهذا ما يدلّ على أن الترف ليس حالة خاصة بقوم دون قوم، أو بجماعة دون أخرى، وإنّما هو صفة، بما هو مترف، لكل معاند للحق ومستكبر عن عبادة الله تعالى، ومُفسد في الأرض، وهو ما لحظه الشيخ الطوسي في التبيان[2]، والطباطبائي في الميزان[3]، والزمخشري في الكشاف[4]، وغيرهم من المفسّرين، الذين رأوا في الترف والإتراف والمترفين سبباً لهلاك الأمم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٣٢ – ٣٣.

(٢) لقد بيّن الطوسي في التبيان أن حالات الترف المستأصلة بالعذاب في الدنيا ليست متميزة بين تابع ومتبوع، ولهذا، فعجب الله نبيّه كيف لم يكن منهم بقية في الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب، ثم انتهى بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ...﴾. را: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، ط١، ١٤٠٩، ج٦، ص٨١.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج١١، ص٦١.

(٤) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٩م، ج٢، ص٤٢٠.

لا شكّ في أن ما تقدّم من كلام في معنى الترف والمترفين يحتّم الكلام في معنى هذه السنّة الحاكمة في ميدان التاريخ، فنقول: إنّ ما يعرض له القرآن في موضوع الترف ليس هادفاً إلى تأكيد هذه السنّة على النحو الذي يفهم منه أنها سنّة حاكمة لا مهرب منها، ولا مخرج عليها، بحيث يقال: إنّها سنّة حاكمة لا سبيل إلى الخروج مما تقتضيه من سرّاء وضرّاء في وعي الإنسان وحركته الاجتماعية والسياسية والحضارية. فهذا مما لا يمكن فهمه من سياق الآيات القرآنية التي تحثّ على الاستقامة، وإقامة العدل، وتحقيق الأمن، وقد بيّنا فيما سبق أن سنن التاريخ ليست من قبيل السنن الناجزة التي لا يمكن تحدّيها، وإنما هي من السنن المشروطة المتوقفة على فعل الإنسان وإرادته، فإن اقتضت إرادة الإنسان واختياره التغيير حصل التغيير وفاقاً لفعل الإنسان واختياره، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1].

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن هذه السنّة حاكمة، وهي تجري على اللاحقين، كما جرت على السابقين: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[3].

وإذا كان لهذه السنّة هذا المعنى في حركة الإنسان ودوره، فليس عليه إلاّ أن يسلك السبيل المؤدّي به إلى الصلاح، بحيث يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويؤمن بالله تعالى، بحيث يكون له ما كان لأولئك الذين نجوا مع أنبيائهم في التاريخ الإنساني وتجاربه؛ فلا يُقال كما يعرض القرآن لأقوال جماعة من الناس عفوا ونموا وحسبوا أنهم كأسلافهم فيما جرى لهم في البأساء والضرّاء، حيث قال

(١) سورة الجن، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٢.

تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[1].

إنّ هؤلاء لم يتّعظوا ولم يعتبروا بما سلف، فأصابهم العذاب بغتة، ولكونهم أساؤوا فهم السنن الحاكمة في التاريخ، وخرجوا عن مقتضى السنن بإرادتهم، فكان لهم ما أرادوا، فلا يقال بأن هؤلاء أجبروا على أن يكونوا على خطى أسلافهم، ما يعني ضرورة الاعتبار وفقاً لهذه السنن، والقيام بما يلزم للحيلولة دون وقوع العذاب، سواء الجزئي، أم عذاب الاستئصال، الذي أصاب الكثيرمن الأمم نتيجة الكفر والفساد والعصيان. وإذا كان ما يرشد إليه القرآن من سنن لا تبديل لها ولا تحويل قد أخضع الإنسان لإرادته وفعله فيما يختاره لنفسه من خيارات، ويتخذه لنفسه من مبادئ ووسائل، ويدين به من اعتقاد، فإنّ مقتضى الفهم لهذه السنن أن يكون الإنسان واعياً لحقيقة ما ينبغي أن يكون عليه من تحولات، سواء في نفسه، أم في واقعه، على اعتبار أن الإنسان يعبر في كل تحولاته عمّا يعتقده بالقول والفعل، وهذا ما يقتضي منّا التوقف مليّاً عند عقيدة المترف ومنطقه فيما يواجهه من أحداث، وفيما ينطوي عليه من اعتقاد، ويعتمده من أسباب ووسائل، ويسعى إليه من أهداف.

أولاً: عقيدة المترفين

إنّ أدنى تأمّل في سياق الآيات القرآنية التي تَعْرُض لموضوع الترف والمترفين، لا بدّ أن يكشف عن حقيقة ما يعتقده هؤلاء، ويرون أنه أساس الحياة الإنسانية وجوهرها، فهم أي المترفون في قولهم وفعلهم يعبّرون عن اعتقاد راسخ لديهم بأنّ الحياة كلّ الحياة هي في ما يتمتعون به من ملاذ وتنعّم، خلافاً لما يراه الأنبياء

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٤ – ٩٥.

والصالحـون من عباد الله تعالى. لهذا، نجد دائماً هـذه العلاقة السلبية المطّردة بين الأنبياء والمترفين، إذ في الوقت الذي يعتقد فيه أهل الترف أنّ الدنيا والتكاثر فيها هو منتهى الآمال والأحلام، يرى الأنبياء أنّ الدار الآخرة هي الحيوان، كما قال تعالـى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إذن، هناك علاقة سلبية، كما يرى الصدر في سنن التاريخ[2]، ومطهّري في المجتمع والتاريخ[3]، أنّ العلاقة هي علاقة تطارد وتناقض بين موقع النبوة وموقع المترفين على الساحة التاريخية، وقد عبّر القرآن عن هذه العلاقة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4].

والحق يُقال: إنّ الآية وإن كانت تعبّر عن قول المترفين، فيما زعموه لأنفسهم من تكاثر في المال والولد، إلاّ أنها في الجوهر تعبّر عن اعتقاد هؤلاء الراسخ بقيمة الدنيا، والكفر بما أرسل به الأنبياء، وهو قول صادر عن حقيقة ما تنطوي عليه ضمائرهم، وليس مجرّد قول ظاهري يأتي به الإنسان لمجرّد التعبير عن حالة طارئة فيما يعرض له من أزمات على الساحة الاجتماعية وما تذخر به من أحداث مختلفة قد تدفع بالإنسان أحياناً إلى الدفاع عن مصالحه باضطراب في القول والفعل. ومما يؤكد هذا المعنى الذي نذهب إليه هو ما أفاده القرآن عن معتقدات المترفين في تاريخهم، إذ إنّ القرآن بيّن أن هذه المقالة للمترفين كانت لسان حالهم قولاً واعتقاداً في كل حقب التاريخ. ولهذا كما نرى، تأتي في الآيات لتسلية

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٥٩.

(٣) مطهّري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٢٧.

(٤) سورة سبأ، الآيتان: ٣٤ – ٣٥.

النبيﷺ مما مُني به من قومه، كما جاء في تفسير الصافي[1]، وكما أفاد شبّر بأن في هذا بيان للنبيﷺ أن أهل قريته جروا على منهاج الأولين، وفي هذا إشارة إلى أن أتباع الأنبياء كانوا الفقراء دون الأغنياء[2]، وقد سبق لنا أن عرضنا لحقيقة هذا التقويم، ورأينا أن المترفين قد يكونون من الفقراء أيضاً، فمفهوم الترف ومعناه ليس خاصاً بالأغنياء، وإنّما هو حالة متجذّرة في المجتمع وغالباً ما يكون أهلها من الفقراء والأغنياء معاً، وهذا هو معتقد التابع والمتبوع فيما أفادته جملة من الآيات: يوم يسأل هؤلا عن أعمالهم فيسرّون الندامة ويجزون بما كانوا يعملون...

مما تقدّم نستطيع القول: إنّ عقيدة هؤلاء الذين أترفوا ليست وليدة الساعة، وإنّما هي قديمة قدم وجود الإنسان على الساحة التاريخية، كما أنها ليست وليدة الصدفة، ولهذا جاء القرآن لتسلية النبيﷺ وتقويته في مواجهة المترفين، وهي

---

(١) انظر: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، (ت ١٠٩١)، مكتبة الصدر، طهران، قم، ١٤١٦هـ، ج٤، ص٣٢٢. وقا: القمي المشهدي، محمد رضا، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، طهران، مؤسسة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص٥٠٨. انظر شرحه لنصّ نهج البلاغة لأمير المؤمنين الذي قال: وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم،... فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يقول الإمام : فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن التعصّب لمكارم الخصال ومحامد الأمور....

(٢) ليس معنى أن يكون الفقراء أنصار الأنبياء، أنه لا يوجد أغنياء في صفوف أنصار الأنبياء؛ ولكن القرآن خصّ المترفين المتنعّمين بالذكر لأنهم كما يقول شبّر أصل في العناد، ونحن نرى أنّ فرز المترفين إلى فقراء وأغنياء ليس صحيحاً طالما أنه يوجد في الفقراء مترفون، بل لولا الفقراء، كما سنرى عند «مغنيّة» لما استبدّ أهل الترف. إنّ الناس هم الذين يصنعون الترف بغضّ النظر عمّا إذا كانوا فقراء أو أغنياء، وهذا ما سنعرض له في بحوثنا المقبلة فيما سنعرض له عن المحاججة بين المستكبرين والمترفين من جهة، وبين المستضعفين من جهة أخرى، هذه المحاججة التي تنتهي بالجميع إلى أن يُسرّوا الندامة حين يرون العذاب، وهذا دليل على أنه لا معنى لهذا الفرز في الدنيا طالما أن مقتضى الجعل وموجبه هو الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير إيذاناً بموجب الجعل كما يرى شبّر في تفسيره.

انظر: عبد الله شبّر، تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٤٠٩، وقا: مع مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١، ج٦، ص٢٦٧. وقا: مع الشيرازي، محمد الحسيني، تقريب القرآن إلى الأذهان، دار العلوم، بيروت، ٢٠٠٣، ج٤، ص٣٩٠.

عقيدة قائمة على التعصب والتفاخر بالمال والولد والتقليد للآباء فيما كانوا عليه من اعتقاد وسلوك، وهذا إن كان يدلّ على شيء، فإنّه يدلّ على مدى ترسّخ هذا الاعتقاد في قلوب المترفين الذين دفع بهم حبّ المال والولد إلى أن يكونوا في مواجهة الحق، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة ملاحظة السياق الذي جاءت به آيات المترفين، لمعرفة حقيقة ما يعتقده هؤلاء، ولعل أكثر ما يتبدّى هذا الاعتقاد الذي تنطوي عليه قلوب المترفين، ما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] فالآية كما نرى تتحدّث عن حقيقة اعتقاد هؤلاء، ومدى ما هم عليه من اعتقاد باطل فضلاً عمّا هم عليه من كفر وعصيان.. فهم في مقابل قول المؤمنين: «**إنا بما أرسل به مؤمنون، قالوا إنا بالذي آمنتم به كافرون**»، فلم يأتوا على ذكر الرسالة والرسول إطلاعاً، وهذا يدلّ على مدى كفر هؤلاء وعتوّهم في مواجهة الحق، والحق يُقال: إن هذا ليس مجرّد تقليد في الاعتقاد، وإنما هو رسوخ في الكفر، وإصرار على الشرك وارتكاب المعاصي، كما يُفيد سياق الآيات القرآنية...

غاية القول: إنّ عقيدة المترفين، كما تتجلّى في جملة من الآيات المباركة، وخصوصاً آيات الاستكبار تؤكّد بما لا يدع أي مجال للشكّ بأن المترفين هم أصحاب القول، لأن مؤدّى الترف هو الاستكبار في الأرض والإفساد فيها على نحو ما بيّنّا في مباحث سابقة، باعتبار أن عقيدة هؤلاء، وإن كانت قد تظهّرت من خلال التركيز على المال والولد والتقليد، إلاّ أنها في سياق الرؤية الموضوعية مبتنية على اعتقاد راسخ وموقف سلبي من الرسل والرسالات، وهذا يتجلّى بوضوح فيما زعمه المترفون عن استحالة البعث والنشور والعذاب والثواب في الآخرة، كما في قولهم:

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٧٥ – ٧٦.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عمّا يعتقده هؤلاء بشأن الدنيا والآخرة، فهم لا يؤمنون بالبعث، ويكفرون بالله تعالى، ويستكبرون عن عبادته من منطلق عقيدتهم الباطلة ووعيهم بهذا الباطل. إنّ ترفهم ليس مجرّد ضلال أو تقليد أو زعم يمكن تسويغهُ في إطار الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية المهدّدة بفعل النبوّة ودورها، وإنّما هو ترف واستكبار في الأرض نابع من رسوخ في الاعتقاد بأن الدنيا هي دار قرار ولا بدّ من الدفاع عنها بما تعنيه من مال وولد ونفوذ، ولعلّ أكثر ما تجلّى هذا في الصراع مع قريش التي تنكّرت لقيم السماء، وادّعت الحق فيما تكاثرت به من مال وولد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، هذا فضلاً عمّا استكبرت به من قول وفعل في مواجهة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

لا شكّ في أن الآيات القرآنية ذات الصلة بموضوع الترف والاستكبار فيما لو أخذت في سياقاتها المختلفة تبيّن أن خطاب المترفين في الدنيا هو ذاته الخطاب الذي تجلّى بين المستكبرين والمستضعفين في جملة من الآيات، حيث قال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[3]، وفي هذه الآيات من الدلالة ما يكفي لإظهار حقيقة التواصل والامتداد بين ما يكون عليه المترف في الدنيا، وما يؤول إليه من مصير في الآخرة بسبب ترفه واستكباره في الأرض بغير حق، وهذا يعني فيما يعنيه أن مصير الآخرة وما يلاقيه المترف من جزاء، هو نتيجة لما انطوى عليه قلبه من اعتقاد، ولما تسبب به من إجرام وإفساد في الأرض، وهذا هو مؤدّى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟

(١) سورة النحل، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٣.
(٣) سورة الواقعة، الآية ٤٥.

مُجۡرِمِينَ ﴾[1] فاستحقوا العذاب الأليم! وهنا تجدر الإشارة إلى أن عقيدة أهل الترف ومسلكهم في الإجرام والإفساد، وكذلك عقيدتهم بالتنكّر للآخرة والتكذيب بها، هذا الاعتقاد لا بدّ أنّه يستبطن مؤديات كثيرة في التحققات الاجتماعية والسياسية للناس على نحو ما بيّنا في المبحث السابق لجهة التأكيد على الأثر السلبي لعقيدة المترفين في الدنيا وما تتركه من تداعيات على الاجتماع الإنساني، لأن المترفين فيما يلجأون إليه من وسائل وأساليب، وفيما يعبرون عنه من اعتقادات، يُحدثون الإجرام في المجتمع، ويتسببون بالفقر، ويمنعون من التغيير على قاعدة قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾[2]، وهذا كما بيّن القرآن، ما يكون مجال حوار بينهم وبين المستضعفين يوم يسرّون الندامة على ما قدّمت أيديهم في الدنيا.

إنّ عقيدة المترفين، وكذلك منطقهم، كما سنبيّن لاحقاً، هي عقيدة تقوم على الكفر والتكذيب بلقاء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾[3]. ثم أعقبوا قولهم هذا: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[4]، وهذا ما يدلّل على أن عقيدة المترفين ليست مجرّد تعبير عن صراع هادف إلى الحفاظ على الأموال والأولاد والمصالح المادية، إذ لو كان الأمر كذلك لما لجأ المترفون إلى مواجهة النبوّة والردّ عليها بالتكذيب والاستكبار والكفر بالله تعالى ورسله، ذلك أن النبوّة لم تكن بوارد منافسة المترفين على ما في أيديهم من متاع الدنيا، وكان الأنبياء حريصين دائماً على مصالح هؤلاء في حدود ما يسمح بإحقاق الحق وتحقيق العدالة والحفاظ على سلامة المجتمع سياسياً واقتصادياً، ولعلّ من أهمّ ما يدلّ على هذه

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٣٦.

الحقيقة هو ما عبّر عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «**ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون، وعليهما مدارعُ الصوف، وبأيديهما العصيّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه، ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العِزّ، وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذُلّ، فهلاَّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب؟ إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه! ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء**»[1].

إنّ في كلام الإمام عليه السلام ما يفيد أن حقيقة الصراع بين الأنبياء والمترفين لم تكن بهدف إهلاك المترفين أو تدمير ثرواتهم المادية، أو طمعاً بما في أيديهم، وإنّما كانت تجليّات هذا الصراع منبعثة من رغبة الأنبياء في تخليص المجتمع الإنساني من الظلم والاستعباد، وتحويل الناس عما هم عليه من إخلاد للأرض، ولو أن المترفين عقلوا عن الأنبياء لما اختاروا هذا الصراع، بدليل ما بيّنه الإمام عليه السلام بقوله: «**فشرطا لفرعون إن سلم بقاء ملكه ودوام عزّه**». فإذا كان الرسل والأنبياء لم يرغبوا في إزالة الثروات من أيدي المترفين، ويريدون لهم الخروج من الكفر والعصيان إلى رحاب الإسلام، بحيث يؤمنوا بالله تعالى، ويعملوا الصالحات، فما تكون مشكلتهم مع النبوة إذاً غير أن يكونوا راغبين وعازمين على مواجهة النبوّة لإضلال الناس والاستبداد بهم ليكونوا عبيداً لهم، كما قال فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[2] وغير ذلك مما زعمه من ألوهيّة وطريقة مثلى في الدين والدنيا...!؟.

خلاصة القول: إنّ عقيدة المترفين فيما عبروا عنه من اعتقاد راسخ بالكفر

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

والشرك، وفيما زعموه من تكاثر في المال والولد، وفيما ادّعوه من فهم للحياة والخلق والوجود، وفيما نسبوه لأنفسهم من قوة ورزق، كما زعم قارون بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1] إلى غير ذلك من المزاعم، إنّ كل ذلك إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أن عقائد المترفين على الساحة التاريخية هي عقائد ظالمة، وليست مجرّد أقوال، وقد عمل من خلالها المترفون إلى إضلال الناس وتعبيدهم اعتقاداً منهم بصحّة وحقيقة ما يزعمون، سواء في مجال العلم، أم العمل، وإن ممّا يدلّ على هذه الحقيقة ما جاء به الأنبياء من معجزات لهداية هؤلاء دون أن يكون لهذه المعجزات أدنى تأثير عليهم، وقد قال الله تعالى فيهم تأكيداً على كفرهم وجحودهم، وصرفاً للنبي عن الاهتمام بهم فيما يطلبونه تعنتاً وجهلاً واستهزاءً: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ...﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[3].

لقد أوضح الإمام علي عليه السلام في نصّه المتقدّم طبيعة العلاقة وحقيقة الصراع بين الأنبياء والمترفين، وكشف عن ماهية هذا الصراع الذي امتدّ على الساحة التاريخية منذ أن استخلف الإنسان على هذه الأرض، وهو من السنن الحاكمة التي لا مفرّ منها إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها، وطالما أن التجربة التاريخية قد أثبتت أن عقيدة الإيمان هي العقيدة الثابتة والراسخة، فإنّه لا يسع الإنسان إلاّ أن يكون معتبراً بحال الأمم التي خلت، بحيث يكون منه الإنصاف لنفسه فيما يختاره

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.

لها من مبادئ وقيم تساعده على تحقيق ذاته في مقابل أطروحات الترف والمترفين القائمة على الظلم والإجرام والفساد في الأرض...

إنّ نظرة فاحصة في ما عرض له القرآن عن حال المترفين وما يسعون إلى تحقيقه، لا بدّ أن تكشف عن حقيقة هذه السنّة التاريخية الحاكمة على مصير الإنسان ومساراته في الدنيا والآخرة، فلا يقال بأن الإنسان يمكن أن يكون له استثناءً في عمل هذه السنّة بل هي امتحان له للفوز في الدارين. وهو بمقدار ما يكون واعياً بهذه السنّة وخاضعاً لها ومستجيباً لشروطها، بمقدار ما يكون قادراً على تحقيق النصر فيما يعرض له من أزمات وأحداث، وهذا ما بيّنه الشهيد الصدر في حديثه عن هذه السنّة، مبيّناً أنه لا استثناء من السنّة التاريخية لأحد ممّن يعيش تفاعلات الأحداث وتحولاتها[1] وخاصة الإنسان المسلم الذي يعي تماماً أنه لا مبدّل لكلمات الله تعالى فيما رغّبه به وأرشده إليه من أحكام وتعاليم ووسائل لتحقيق حياته وفاقاً لأمر الله ونهيه، بحيث يكون له النصر على كل ما يقابله من مزاعم، سواء في العقيدة، أم في العمل والسلوك، وكما قال تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ...﴾[2].

وكيف كان، فإنّ الكلام في عقيدة المترفين يمكن اختصاره على النحو الذي يمكن معه الكشف عن جوهر هذه العقيدة في القرآن في إطار رؤية شاملة يتبيّن من خلالها أن الرؤية القرآنية، وخاصة في القصة القرآنية وما تشتمل عليه من منحى، هي ذات وجهة واحدة فيما تأتي به للتدليل على ما يكون عليه المترف من قول وفعل في مواجهة النبوة. كونه لا فرق بين ما كان يزعمه الذين كذّبوا النبي موسى عليه السلام والذين كذبوا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، باعتبار أن منطق المترفين لم يختلف بين زمن وآخر، وبين رسول وآخر، بل هو كلام واحد هدف من خلاله المترفون إلى الحفاظ

(١) انظر: الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، والتفسير الموضوعي، م. س، ص٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

على مواقعهم الاجتماعية والسياسية، وكذلك منطق النبوة أيضاً، فهو لم يختلف بين نبي وآخر من حيث كونه هادفاً إلى الهداية والتغيير والإصلاح على النحو الذي يخدم الإنسان في مسيرته الإنسانية، ويساعده على تجاوز أزماته من خلال تغيير ما بنفسه، كأساس وجوهر لكل إصلاح، وبهذا المعنى تتجلّى لنا الرؤية الموضوعية لحقيقة هذا الصراع، وهذا التقابل بين الأنبياء والصالحين من جهة، وبين المترفين والمفسدين من جهة أخرى، ولا يخفى على متأمّل بصير أن هذا الصراع المحتوم دائماً ما كان ليستمر لولا أن المترفين قد استطاعوا التأسيس لمنظوماتهم عقائدياً في المجتمعات الإنسانية، وهذا أمر من الأهمية والوضوح بمكان.

ثانياً: منطق المترفين

قلنا: إنّ من أولويات الاتجاه الموضوعي، أو التفسير الموضوعي أن نفكك الموضوعات الكبيرة، لكي نسهّل طرق الوصول إلى أي موضوع قرآني. وإذا كنّا قد أعرضنا عن هذا الأمر في مبحث العقيدة، فذلك إنما كان من منطلق أن عقيدة المترف هي عقيدة واحدة لم تختلف بين زمان وآخر، بدليل ما عرضت له الآيات القرآنية لجهة التأكيد على ما هو راسخ لدى المترفين من اعتقاد عبّرت عنه جملة من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [1]، وهي سنّة كما بيّن الصدر، ليست مجرد ظاهرة وقعت في التاريخ صدفة[2]، وإلاّ لما تكرّرت بهذا الشكل المطرد، ولما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾، والكلام هو في مطلق القرية، سواء في الماضي أم في الحاضر.

وإذا كنّا نحن لم نفكك هذا الكلام في مبحث العقيدة، فذلك أمر فرضه إطلاق الآية بما هي سنّة جارية في ميدان التاريخ وتستبطن خصيصة الاضطراد كما سلف القول، إضافة إلى كونها تعبّر عن لسان حال كل المترفين، فضلاً عن كونها تنطوي على

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٢) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، م. س، ص٥٧.

عقيدة المترفين ومنطقهم في مقابلة الأنبياء، وهذه السنّة في مجال العقيدة تشير إلى الاصرار والاعتقاد الراسخ بالكفر بما أرسل به الأنبياء. أما في مجال المنطق، فهي تشير إلى اغترار المترفين بما أتاهم الله من مال وولد ظنّاً منهم أن ذلك مما يرضى الله تعالى عنهم، واعتقاداً منهم قولاً وفعلاً أن الأموال والأولاد هي التي تقربهم زلفى عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[1].

وإذا لاحظنا السياق الذي جاءت فيه الآية يظهر لنا قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2]، الذي توسط بين سنّة الله تعالى في إرسار الرسل وتواتر الأنبياء، وبين ما يدّعيه المترفون من قول وكفر بما جاء به الأنبياء، وهذا التوسّط إنما كان، والله أعلم، بهدف بيان الحكمة من التوسعة على بعض والتضييق على آخرين، وليس هادفاً إلى شيء خلاف ذلك، وهذا ما يقتضي عدم الاغترار بما هم عليه من مال وولد، وإنما ينبغي التيقّن بأن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرّب من الله تعالى، وليس المال والولد وغير ذلك من نعم الدنيا سوى امتحان وابتلاء للإنسان، كما بيّن تعالى في سورة الفجر بأن الغنى ليس دليل كرامة، ولا الفقر دليل هوان[3]، وهذا ما أخفق المترفون في فهمه. فازدادوا ترفاً وكفراً واستكباراً، ظنّاً منهم أن المال والولد هما دليل كرامة من الله لهم!!

إذن، تفكيك موضوع منطق المترفين، هو ما تقتضيه حقيقة اختلاف مفردات الخطاب والمنطق بين أن يكون في الدنيا بين المترفين والأنبياء والصالحين، وبين أن يكون في الآخرة، كما تجلّى هذا المنطق في سورة الأعراف، وغيرها من السور

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٦.

(٣) قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦].

القرآنية التي تعرض لمنطقهم في الآخرة تارة من خلال قول المستكبرين، وهم الذين أترفوا في الحياة الدنيا وطوراً من خلال خطاب الله تعالى لهم، وجوابهم على هذا الخطاب، الذي تراوح بين أن يكون مع الله تعالى، وبين أن يكون مع المستضعفين، وهذا كما بيّنا، يقتضي منّا أن نميّزه في البحث من خلال تفكيك الموضوعات الكبيرة إلى موضوعات صغيرة بهدف التعرّف إلى منطقهم في الدنيا والآخرة، وهذا ما لم يكن ممكناً في مبحث العقيدة، لأنها واحدة كما هو مفاد آيات الترف والاستكبار في القرآن. عقيدة راسخة لديهم تنطوي على التكذيب بلقاء الله تعالى، والجحود والكفر بما أرسل به الأنبياء، وهذا ما لا يظهر أي اختلاف في مؤدّياته لكونه يرشد إلى أن عقيدة المترفين لم يكن لها من أثر سوى أنها أوصلتهم إلى عذاب الله تعالى في جهنم، وقد تجلّى هذا الوصول، والتعبير عنه بقولهم نعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] بعد أن كانوا في الدنيا يقولون: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2].

لقد رأوا بأمّ أعينهم، كيف أنهم انتقلوا إلى الدار الآخرة بما هم عليه من جحود وتكذيب واستهزاء، فكان لهم جزاء ما قالوا وما اعتقدوا قولاً وفعلاً، وهذا ما سنعرض له في مبحثنا هذا بعد أن عرضنا لعقيدة المترفين، مميّزين بين منطق المترفين في الدنيا، وبين منطقهم في الآخرة، على اعتبار أن منطق الاستكبار في الآخرة، هو ذاته منطق المترفين في الدنيا، إذ لعلّ هناك من يتبادر إلى ذهنه السؤال التالي: لماذا أتيتم على موضوع الترف في سياق الحديث عن منطق الاستكبار في الآخرة؟ قلنا: نعم يصحّ القول بأن الآيات لم تأتِ على حوار، أو جدل بين المترف وغيره في

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٢ – ٨٣.

يوم الحشر، ولكنه لا ينبغي أن نسهى عن حقيقة قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[3]، وهذه الآيات، كما نرى، تستبطن ما كان عليه المترفون في الدنيا من استكبار واستعلاء، وهو ذاته المنطق والحوار الذي يجري بينهم وبين المستضعفين يوم يحشرون إلى الله تعالى.

إن المترف المستكبر هو الذي أخذ بالعذاب، وهو الذي كان في دنياه من المترفين، وهو ذاته الذي قال واعتقد وعمل ضدّ الأنبياء والصالحين، وادّعى ما لم ينزل الله به سلطاناً، إلى غير ذلك مما عرض له القرآن في مئات الآيات، ويمكن لأيّ باحث أن يُحصي مئات الآيات التي تشير إلى قول المترفين بصيغة وقال الذين كفروا، سواء أكانت تعني المنافقين، أم المترفين المستكبرين...

وانطلاقاً مما تقدّم نرى ضرورة لأن نبحث منطق المترفين في الدنيا والآخرة على النحو الذي نستطيع معه أن نبيّن حقيقة هذا المنطق ومؤدّياته، وذلك يهدف إلى معرفة ما إذا كان هذا المنطق قد اقتصر على المترفين المستكبرين، أم أنه تجاوزهم إلى المستضعفين ممن تبعوا المترفين وسمعوا لهم، وكان لهم ما كان للمترفين من العذاب في الدنيا والآخرة، لأنّ الترف والمترفين، كما سبق القول منّا، لا ينحصر بالأغنياء، وإنّما هو يعني كل من سمع لهم وتأثّر بهم وسار على طريقتهم واقتدى بهم، وإلاّ كيف يمكن لباحث أن يفسّر هذا الحوار بين المتكبرين والمستضعفين في يوم المحشر، وقد أفاد القرآن عن هذا الحوار أنه كان حوار ندم يوم لا ينفع الندم، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.
(٤) سوة سبأ، الآية: ٣٣.

أ- منطق المترفين في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[1].

لا شكّ في أن الآيات القرآنية بعد أن تقرر لعقيدة المترفين المشركين كما أفادت آية سورة سبأ: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2]، بأنهم كافرون بما أرسل به الأنبياء، وقد بيّنا سابقاً أن قوم عاد لم يأتوا على ذكر الرسالة، بل قالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ استكباراً في الأرض، وجحوداً بالله تعالى، بعد هذا البيان القرآني، الذي يقرّر سنّة من سنن التاريخ الحاكمة والمضطردة، نرى آيات سورة الزخرف تعرض لمنطق المترفين، وتذمهم على تقليدهم للآباء فيما يعبرون عنه وينتمون إليه من عقيدة ومنهج ودين في الحياة، فهم يرون أن الاهتداء والاقتداء بالآباء هو الطريقة المثلى[3]، والشريعة الحقّة، وكما رأينا سابقاً أن الله تعالى كان يمنّ عليهم بتبديل السيئات إلى حسنات ليتغيّروا، ولكنهم كانوا بعد أن يكثروا ويعفوا، يقولون قد مسَّ آباءنا الضرّاء والسرّاء، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4]، بل إنهم أجابوا على كلام الرسول ﷺ بأكثر من التقليد للآباء فيما زعموه، فقال لهم النبي: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[5]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ، ليس على التقليد للآباء وحسب، بل على مدى ما وصل إليه هؤلاء من جحود وكفر بما جاء النبي ﷺ، وهذا ما عرضت له سورة الأنبياء مع النبي

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٢١ – ٢٣.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٣) را: المفيد، محمد بن محمد،تصحيح اعتقادات الإمامية، وفاة المؤلف، ٤١٣هـ، إيران، قم، ١٤١٤هـ، ط٢، ص٧٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٤.

إبراهيم عليه السلام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ولا شكّ في أن نتيجة هذا التقليد الأعمى والضلال المبين، كانت، كما يرى النيشابوري[2]، اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، إذ هم اختاروا أن يكونوا عبيداً لأرباب متفرّقين على أن يكونوا عباداً لله الواحد القهّار، وقد قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3].

إنّ ما يفيده سياق الآيات، هو أن المترفين في تقليدهم للآباء، وإجابتهم الواعية على قول النبيّ ﷺ بالكفر بالرسالة متجاوزين حدود التساؤل، إذ إنّ مقتضى السؤال أن يجيبوا على ما يرونه من هدى بتأكيد اتباع الآباء. أما أن يبادروا إلى القول: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فذلك صلف في القول، وغرور في التقليد إلى الحدّ الذي يمكن أن يقال معه أن طيب العيش ولذّة الحياة والفساد قد أعمتهم بصراً وبصيرة، فأدخلهم ذلك فيما وصفهم الله تعالى به بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]، لما آل إليه أمرهم في القول والفعل، وهذا المنطق، كما سنرى، ليس نابعاً من مجرّد جهل، أو عدم مبالاة، وإنّما هو جحود واستعلاء في الأرض، واستكبار عن الحق، وقد عبر فرعون عن هذا المنطق بقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ – ٥٤.

(٢) النيشابوري فتال، محمد بن أحمد، روضة الواعظين، وبصيرة المتعظين، (وفاة ٥٠٨هـ) منشورات الرضى، إيران، قم، ١٤١٧هـ، ط١، ج١، ص٢٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٥) سورة طه، الآية: ٦٤.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

ولهذا، فإننا نعجب ممن يذهب إلى القول بأن منطق المترفين في الدنيا نابع من كونهم قنعوا بعقائد الآباء واستكانوا لها على ما أفاد النباطي في الصراط المستقيم[1]، فهذا المنطق ليس مجرّد ميل عن صحيح النظر، بل هو اعتقاد راسخ لدى المترف يصدر عنه ويعبّر فيه عن عقيدته الكاذبة والناشئة عن تمكّن الشيطان من قلبه وعقله، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2]، فالمترف ليس مجرّد مقلّد للآباء، وإنّما هو ممّن استهواه الشيطان فأركسه في الفساد وأضلّه عن السبيل، ولهذا، نجد الرسول ﷺ قد أُمر بأن يقول لهؤلاء المترفين: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] فالآية ناظرة، كما نلاحظ من سياقها العام في سورة الأنعام، إلى أن عرض المشركين ورؤساء القوم الذين أترفوا كان دعوة المؤمنين لأن يعبدوا ما لا يضر ولا ينفع، أي آلهة المشركين، ولكن الله تعالى أمر رسوله أن يردّ عليهم مقالتهم الرخيصة بأشدّ الإنكار على ما يفيده الاستفهام الإنكاري، وكانت النتيجة ما قاله الرسول ﷺ: إنّ هدى الله هو الهدى، وليس مَن أضلّته الشياطين وجعلته تائهاً حيراناً لا يقدر على إجابة، ولا يمنع من استهواء. ذلك هو معنى أن يكون المترف مقلداً، أن يكون مستكبراً في الأرض، ومدفوعاً من الشياطين للإفساد فيها، باعتبار أن سياق آيات أهل التقليد وما هم عليه من اعتقاد ومنطق، يفيد الإصرار على تكذيب الأنبياء، والكفر بما جاؤوا به من عند الله تعالى إلى غير ذلك مما

(١) انظر النباطي العاملي، علي بن محمد بن يونس،، الصراط المستقيم، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٤٢٦هـ، ط١، (ت ٨٧٧هـ)، ج٢، ص١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

تميّزوا به من ضلال مبين، وعمى في البصر والبصيرة، ما أدّى بهم إلى أن يكونوا مفسدين في الأرض، عالين فيها، وقاهرين لأهلها على حدّ تعبير فرعون الذي أظهر القرآن منطقه بما لا يدع مجالاً للشك في أن منطق الفراعنة والمترفين ليس هو ذاك المنطق الذي يصدر عن الحاكم أو الرئيس، أو الطاغوت وحسب، وإنما هو ذاك المنطق الذي يردّده التابع والمتبوع، المستكبر والمستضعف الذي أتبعه وقال مقالته، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[1].

هذا هو مؤدّى هذا المنطق الفرعوني، وما يكون له من آثار على مَن يستكين له ولا يخرج عليه، فيكون له من ذلك الاستخفاف والاستعباد، وعلى هذا الحال كان مشركو مكة الذين أترفوا في الحياة الدنيا، وكفروا بالرسالة والرسول فيما أتبعوه من تقليد للآباء، واستخفّوا بالناس إلى أن مَنَّ الله تعالى على المؤمنين بالهجرة وإقامة العدل بعد فتح مكة، هذا الفتح الذي لم يمنع عتاة قريش وأهل الترف والتقليد من الاستمرار في مناهضة الرسالة والرسولﷺ سرّاً وعلانية[2]، ونقول بصراحة: إنّ ما ظهر من ترف واستعلاء بعد فتح مكة كان أعظم بكثير مما كان قبله، لأن المترفين تابعوا نهج الآباء تحت عناوين إسلامية للقضاء على الرسالة وأهلها، ولكن الله تعالى حفظ هذه الرسالة من مكر الماكرين، وحال دون أن يتمكّن

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

(٢) را: ما قاله أبو سفيان حينما كانت تدخل سرايا الإسلام مكة، وقال الرسولﷺ للعباس بن عبد المطلب: احبسه بمضيق الوادي حتى تمرّ به جنود الله، قال العباس: فحبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، والقبائل تمرّ براياتها إلى أن مرّت الكتيبة الخضراء والرسولﷺ فيها، فقال أبو سفيان للعباس بعد أن رأى ما رأى من القوّة: «سبحان الله يا عباس، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، قلت: أي العباس، يا أبا سفيان، إنّها النبوّة... وهذا ما يكشف لنا كم كان الترف مستحكماً بأبي سفيان، إلى حدّ أنه لم يرَ في النبوّة إلاّ ملكاً عظيماً. ولولا أن الرسولﷺ قد أعطاه شيئاً من الفخر لما سكنت نفسه عن الطغيان، حيث قال رسول اللهﷺ: «فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، تسكيناً لنفسه، وتلبيداً لترفه وطغيانه.

انظر: عبد السلام هارون، سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، الكويت،ط١، ١٩٨٤م، ص٢٥٣.

المترفون من تحقيق مشروعهم، رغم كل ما حقّقوه من انتصارات مادية وملاذ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ (١).

إذن، ليس التقليد مجرّد اتباع للآباء، وإنّما هو مشروع قائم على عقيدة ومنطق أشار إليه القرآن في آيات كثيرة ولعلّ أهمّها هو ما عرض عن فرعون ومنطقه، الذي قابله منطق أهل الإيمان والصالحين من عباد الله تعالى، إذ مقابل الاستعلاء، كانت التزكية، وقد أشرنا إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ (٢)، الذي يقابله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (٣).

إن للترف منطقه كما للإيمان منطقه، وهذا ما ينبغي التوقف عنده مليّاً، فنقول: إن منطق المترفين في الدنيا، تابعين ومتبوعين، استحق ويستحق دائماً أن يكون الأنبياء وأهل الصلاح في مواجهته، ولهذا نجد القرآن يعبّر عن هذا المعنى فيما أشار إليه عن قوم صالح، حيث قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٤)، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ..﴾ (٦)، إلى غير ذلك من الآيات التي تلحظ لمنطق المترفين في الدنيا في مواجهة دعوة الأنبياء والمرسلين، وهو منطق كما أسلفنا، ليس قوامه الجهل، أو الخطأ، وإنّما المعاندة والكفر والاستكبار في الأرض بغير حق، وهو هادف دائماً إلى طلب

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٦٢.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٤٣.

السلطة والاستئثار بالمال والنفوذ، بمعنى آخر يمكن القول: إنه مشروع هادف إلى استعباد الناس والاستخفاف بهم، وما يؤسف له ويعجب منه، هو سرعة الاستجابة لهذا المشروع من قبل السواد الأعظم من الناس رغم كل ما يتسبب به من فقر وبلاءات وجراحات وقهر لهم، وهذا إن دلَّ على شيء فإنّه يدلّ على حقيقة هامة جداً أظهرتها التجارب، حيث نجد أن المترف لم يكن فيما هو عليه من منطق وعقيدة مكترثاً لتقليد الآباء، باعتبار أنه كان دائماً يخرج عن هذا التقليد ليتخذ من الدين الجديد، سواء أكان المسيحية، أو الإسلام شعاراً له للاستمرار في استعباد الناس، وهذا ما كشفت عنه التجارب، وخاصة التجربة الإسلامية التي عبّرت عن طاغوتية جديدة، وفرعونية عاتية تلبّست بكل شيء للقضاء على الرسالة الإسلامية، وهذا أمر لا يمكن الشكّ فيه. أو المناقشة له، طالما أن تاريخ المسلمين حافلٌ بما كان عليه أهل الترف من دين ودنيا، ولم يكن التقليد للآباء هو الجوهر، أو الأساس لحركتهم الدينية والسياسية، وإنّما كان الدين والرسول والرسالة هو الشعار والعنوان لعقائد المترفين ومنطقهم في التعامل مع الأحداث والأشخاص...[1].

إنّه مشروع شيطاني تلبّس به المشركون أولاً، ثم المنافقون، ثانياً، ثم الآخرون ممّن لحق بهم وعمل بسيرتهم ونطق بأموالهم، ولا يزال هذا المشروع قائماً وله أهله في كل زمان ومكان. وإذا أردنا أن نعرض لجملة من الآيات القرآنية التي توضح هذا المعنى، فإنه يمكن ذلك، إلا أنه واختصاراً لمبحثنا نكتفي بالإشارة إلى حقيقة ما كان عليه أهل الترف من صلف ووعي بما كانوا يطلبونه ويرغبون بتحقيقه من أهداف، فكانوا: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[2]، وقد حصل في التاريخ الديني وخاصة الإسلامي، أن ارتكب المترفون الفواحش والجرائم

(١) انظر: سبحاني، جعفر، سيرة سيّد المرسلين، دار البيان العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ج٢، ص٢٧٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

ونسبوها إلى الله تعالى تحت عناوين الجبر والقهر، وغير ذلك مما عرفه التاريخ من نظريات، حيث نجد بعض الحكام ممن تشدّقوا بالإسلام وحكموا باسمه قد قتلوا أهل بيت الرسول ﷺ وقالوا إن الله تعالى قتلهم، كما حصل في تاريخ كربلاء وغيرها من المناطق الإسلامية الشاهدة على مكر هؤلاء الحكام وطغيانهم في الأرض، وقد ردّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾[1].

إن ما اتهم به الأنبياء من قِبَل المترفين في تاريخ البشرية، من تكذيب وافتراء، وسفاهة، ومكر واستهزاء، وضلالة، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه القرآن من آيات عن صراع الأنبياء مع المترفين، إضافة إلى ما عرض له القرآن من آيات عن مكر هؤلاء الذي يبور، كل هذا يؤكد أن أطروحة الترف والمترفين في الدنيا، وكذلك منطقهم الناشئ عن اعتقادهم الراسخ في الباطل والجريمة، ليست مجرّد أطروحة متقوّمة بالتقليد وحسب، وإنّما هي باطل يقابل الحق دائماً. وإذا كانت بعض العناوين قد تغيّرت، فإن المصطلح القرآني يكشف دائماً جوهر هذه الأطروحة، سواء رفعت منطق الآباء أم ادّعت غير ذلك لتسويغ أطروحتها.

ومن هنا، فإننا ندعو إلى ضرورة التعمّق في فهم المصطلح القرآني، وخصوصاً هذا المصطلح الذي لم نجد له في كتابات الباحثين والمفسرين للقرآن ما يقدّم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠، وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾. إشارة إلى أن الترف الأقوى قد ولّد هذا الطغيان الكبير، وأدّى إلى مظالم كثيرة بحق الرسول ﷺ وأهل بيته، كان أبرزها قتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. وكيف لا يكون هذا الطغيان ناشئاً عن هذا الترف الأموي، وكلنا يعلم أن شجرة الترف الملعونة في القرآن، هي التي واجهت النبي ﷺ لمدة تزيد على عقدين من الزمن، وتسببت له بمآسي كبيرة في مكة والمدينة، إضافة إلى ما أحدثته من فتن في الأمة الإسلامية عبرت عنها الآية القرآنية؟ وكما قال تعالى: إنه أحاط بالناس وكان بالمرصاد من خلال أوليائه لهذه الفتنة التي حيل بينها وبين أن يكون لها فعلها في تعريض الإسلام، عقيدة وشريعة، للخطر. إنه الترف الأموي في تاريخ الإنسانية، وقد استمر مع العباسيين، ولا يزال يمتد مع الأجيال، لا بما هو تقليد ووراثة أموال وامتيازات، وإنما بما هو مشروع سياسي وديني هادف إلى الاستبداد والاستعباد والهيمنة!؟.

إجابة شافية له، فهو مصطلح، كما بيّنّا، جاء في سياق سنّة ثابتة وحاكمة ومطّردة، وفي أكثر من آية، وقد سبق أن عرضنا لإشارات قرآنية عن هذا المصطلح فيما عبرت عنه الآيات تلامس يوم الحشر والعذاب الأخروي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[1]. فالترف، كما رأينا، يتجاوز في معناه أن يكون أهل المال والسلطة مفسدين في الأرض ومقلدين للآباء، فقد يكون غيرهم كذلك مفسداً في الأرض، وطاغياً، ومستكبراً ممن لا ينطبق عليه ترف المال والنفوذ، وهذا ما يتطلّب المزيد من البحث والدراسة لاكتشاف أنّ الترف، مصطلحاً ومفهوماً، هو تعبير قرآني لاحظ لحقيقة الطبقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، التي تُعبّر عن مشروعها في استعباد الناس وقهرهم وسرقة أموالهم، كما سنبيّن في مبحث المترفين وصناعة الفساد.

إنه، وباختصار، مصطلح قرآني يعرض لعدّة مسائل تتعلّق بحياة الإنسان، فهو ينطوي على معنى التقليد للآباء، كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن القرآن هنا يعرض له بصيغة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، فإنّ ذلك يعطيه أبعاداً أخرى في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وكذلك منطق المترف فهو يركّز، في القرآن على التقليد ولكنه في جوهره يشير إلى حقيقة أن المترفين إنّما يهتدون، ويقتدون بالآباء لا على نحو ما نفهمه من تابعيّة لهم في حبّ المال والثروة، وإنّما على نحو أن الآباء قاتلوا الأنبياء وقتلوهم، وحملوا مشروع الدين بمعزل عمّا يعنيه هذا الدين من أرض وسماء، ليكون لهم النفوذ والسلطة والدور المؤثر في الحياة، وليس من عجب أن يدّعي فرعون في عقيدته ومنطقه، أن موسى عليه السلام جاء ليغيّر دين الناس ويذهب بطريقتهم المثلى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[2]. فهذا برأينا، كافٍ للتدليل على أن مشروع المترف ومنطقه ليس مجرّد تقليد، بل هو مشروع

(١) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٦.

اجتماعي سياسي، وقبل ذلك هو مشروع ديني قوامه استعباد الناس، ولكن الله تعالى أبى أن يكون لهذا المترف منطقه ومشروعه المهيمن، فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1] فكان ما أراد الله تعالى من وضع إصر وأغلال، وخروج من الظلمات إلى النور، بما حققه الأنبياء والصالحين من تغيير وهداية وإصلاح.

ب: منطق المترفين في الآخرة:

إنّ مقتضى المنهجية في هذا الاتجاه الموضوعي التوحيدي أن يقسّم موضوع الترف والمترفين في القرآن، إلى قسمين، يلحظ كل قسم منهما ما يكون عليه المترف من قول وفعل في دنياه وفي آخرته، وذلك إنّما كان منّا بهدف استيعاب هذا الموضوع بكل مدلولاته، لأنّ موضوع الترف، كما رأينا، ليس مجرّد تعبير أو مصطلح جاء به القرآن ليعبّر عن حالة عارضة في المجتمع الانساني، وإنما عرض له في سياق ما واجهته النبوة في مسيرتها ودعوتها إلى الله تعالى. هذا، وقد رأينا أيضاً أن الترف بما له من مؤديات لا يختلف من حيث المدلول والمضمون عما عرض له القرآن عن المستكبرين والطواغيت لما ذهب إليه علماء التفسير من أنّ مؤدّى الترف والإتراف هو الاستكبار في الأرض والإفساد فيها...

كما أنه لم يغرب عن بالنا أيضاً، أن منهجيّة البحث المقارنة حتّمت هذا التمييز بين المترف في الدنيا ومنطقه، والمترف في الآخرة ومنطقه في إطار رؤية موضوعية شاملة لما عرضت له الآيات القرآنية على اعتبار أن التفسير التجزيئي يمكن أن يقف على تفاصيل الآيات وأسباب نزولها، إلاّ أنه لا يفي لدراسة موضوع الترف كموضوع شامل في القرآن الكريم، فكان لا بدّ من التقدّم خطوة، كما رأى الشهيد الصدر، بإخضاع عقيدة المترفين ومنطقهم للتجربة الإنسانية لاستخلاص الموقف الإسلامي الرسالي من هذه السنّة التاريخية المطردة التي

(١) سورة يس، آية: ٢٠.

لا تستثني أحداً، باعتبارها سنّة حاكمة على مسيرة الإنسان وتاريخه في الماضي والحاضر والمستقبل، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]، كما أننا حاولنا من خلال الاتجاه الموضوعي أيضاً أن نعطي لموضوع الترف أبعاده الحقيقية بحيث لا نميّز بين المترفين، سواء أكانوا مستكبرين، أم تابعين ومستضعفين، وهذا ما اقتضى منّا كما أسلفنا القول أن لا نعبّر عن المترف بما هو طاغوت وفرعون ومستكبر، وإنما بما هو إنسان أترف في الحياة الدنيا، واستجاب لمنطق وعقيدة الترف وخضع لها طوعاً أو كرهاً بفعل المؤثرات والإغراءات المادية. إنّه الإنسان المترف، الذي امتنع عن فعل شيء لتحرير ذاته من أسر الطاغوت، ولم يقاتل في سبيل الله تعالى لتكون له الحرية والعدالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[2].

وهكذا، فإنّ الذين قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ في الدنيا، كفراً وطغياناً، إنّما عرّفوا عن أنفسهم ومنطقهم ومسلكهم في الحياة الدنيا، هذا فضلاً عمّا كشفوا عنه من مشروع يتجاوز التقليد والجهل إلى الوعي بمسلك الآباء وما كانوا عليه من ضلال مبين، وهو مشروع، كما رأينا، شيطاني، دفع بأحدهم إلى القول بأن ما هو فيه من عزّة ومال ولذّة ومتاع إنّما هو من عنديّاته كما زعم قارون، وهذا يكشف لمتأمل بصير مدى الوعي والتبصّر بمال الدنيا وسرّ الطغيان والترف فيما يحمله المترفون من مشاريع هادفة إلى التحكم بمصائر العباد والبلاد.

وإذا كنّا قد فصلنا بين منطق المترفين في الدنيا، وبين منطقهم في الآخرة،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

فذلك إنما كان لاستجلاء الصورة التي امتدّ بها القرآن من الدنيا إلى الآخرة، وجعل منها صورة ماثلة تنعكس على شهادة الإنسان وحضوره كما تنعكس على الغيب، وهذا ما اقتضى التمييز والفصل بينهما لاستيضاح المعنى الكامل لهذا الموضوع، بكل صوره في الدنيا والآخرة، باعتباره موضوعاً له حيثية الامتداد في الزمان والمكان والحياة...

إنّ ما يقدّمه القرآن عن منطق المترفين والمستكبرين في الآخرة لا يميّز بين مستكبر ومستضعف، وهذا ما يعكس لنا صورة المترف وحقيقته فيما يكون عليه من قول والتزام اتجاه قضايا الدين والدنيا، بل إنه يعكس لنا، وبشكل واضح المصير الذي يؤول إليه المترف لا بِما هو رئيس أو فرعون، أو طاغوت، وإنّما بما هو إنسان استهواه الشيطان وملك عليه قلبه وعقله وكل حياته، فاستحال إلى مترف في عقيدته ومنطقه، سواء أكان متساوياً مع قادة الشرّ فيما هم عليه من ترف، أم كان إنساناً فقيراً لا يقدر على شيء من ذلك، كحال أولئك الذين أرادوا الدنيا وتمنّوا أن يكون لهم ما كان لقارون، كما قال تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[1].

وهذا ما سنكشف عنه في سياق الحديث عن حوار المترفين والمستكبرين يوم يُدعون ليشهدوا على ما اقترفته أيديهم من فساد في الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ٣٢ – ٣٣.

كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[1]. وهنا ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الحوار وما ينطوي عليه من مدلول ومكاشفة، ليس منقطعاً عن حالة الدنيا وما كانوا عليه فيها، وإنّما هو نتيجة وتعبير حقيقي لمنطقهم وحوارهم في الدنيا بعد أن انكشفت لهم مكامن النفوس، وذاقوا حرَّ النار، فقالوا: هل أنتم مغنون عنّا، ظنّاً منهم بأنّ ما كان لهم في الدنيا من قوّة وغنى واقتدار، يكون لهم في الآخرة، وأنّى يكون ذلك وقد قالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾. ولا شكّ في أنّ معنى هذا كلّه على تقدير الاستقبال لأنّ ما تحقق بمنزلة ما قد كان[2]، كما قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾. وقد أضاف الطبري إلى هذا المعنى ما يفيد محبّة الضعفاء للمستكبرين فيما ظهر بينهم من مخاصمة، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ اليوم... فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، و﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾...[3]. إلى غير ذلك مما أفاده أهل التفسير في معنى هذه المخاصمة، حيث يتبدّى بوضوح أن هذا الحوار هو انعكاس حقيقي لترفهم في الدنيا، وقد أشرنا في مبحث الترف في الدنيا أنّ قوّة هذا المنطق كافية في استجابة أكثرية الناس له، بدليل ما نشاهده اليوم من استكانة وخضوع للمترفين ممن يفترض فيهم أن يخرجوا عليهم، وخاصة في العالمين العربي والإسلامي، حيث نجد السكوت والدعة والضعف في مواجهة العدوان على مقدّسات المسلمين وثرواتهم، وقبل ذلك على كرامة المسلمين في بلاد الإسلام، فهم إن كانوا مستضعفين، أو غير ذلك،

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٧ – ٤٨.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ، ج١، ص١٥٥.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (ت ٣١٠) ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت، ج٢٤، ص٩٢.

يتحقق فيهم الترف لكونهم لم يقاتلوا ولم يهاجروا، لكي يكونوا بمنأى عن العذاب[1].

والحق يُقال: إنّ هؤلاء فيما لو سألوا عن حالهم، لكان منطقهم منطق المترفين في الدنيا والآخرة، ولقالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[2]، تماماً كما سيكون عليه حالهم، يوم يقولون: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ ...﴾[3].

إنها صورة حقيقية يعتقد البعض أنها من عالم الغيب، ولكن التبصر في سياق هذا المنطق بين الدنيا والآخرة، والتدبّر في ما تهدي إليه الآيات، من شأنه أن يزيل الغشاوات ليتظهّر للإنسان أن نفسه هي الصورة الحقيقية، وقد كان أستاذنا في الحوزة العلمية يقول لنا: إنّ نفسك هي أقرب الأشياء إليك، فإذا أردت أن تعرف ما في عالم الغيب والشهادة، فانظر إليها إن كنت بصيراً، فتعلم أنّك أنت الغيب

(١) إنّ مشهديّة الحوار بين المستضعفين والمستكبرين كما عرضها القرآن الكريم في العديد من السور القرآنية، تُظهر لذي لُبٍّ أنها ليست أكثر من تعبير عن حال هؤلاء في الدنيا على نحو ما سنبيّن لاحقاً إذ نرى أنّ مليارات البشر اليوم، وخصوصاً في العالم الإسلامي هم محكومون للمترفين والمستكبرين فيما يؤدونه من أعمال ويلتزمون من وظائف، بل إنهم ينطقون بلسان المترفين في كثير من شؤون دينهم، إلاّ القليل ممن آمن وعمل صالحاً، وإذا كان القرآن قد عرض لهذا المشهد على أنه مشهد في الأعراف أو في النار، أو لنقل خارج عالم الشهادة، فإنّه يمكن تحسّس وتعقّل هذا المعنى للحوار في الدنيا كي تدرك أن النار التي سعّرها المترفون للمستضعفين في دنياهم هي شيء مما ينتظرهم في الآخرة. وقد أراد القرآن فيما عرض له من حوارات أن يستفيد منها الإنسان لتكون له النجاة في دنياه، بحيث لا يستغرقه الترف، ويدفع به إلى أن يكون ممّن تنطبق عليه هذه المشهديّة غداً، باعتبار أن الناس الذين يتحاورون غداً هم الناس الذين يعيشون التجربة، وقد قال عليّ : إنّ العقل هو حفظ التجربة، فما بالنا نقرأ النصوص ونقوم بتجريدها، وكأنّ الإنسان الذي يتحاور فيها اليوم هو غير الإنسان الذي يخاصم غداً، إنّه الإنسان ذاته الذي ينبغي عليه أن يعكس هذا الحوار في حياته وتجربته لكي لا يكون من أهل الخصومة غداً.

هذا ما أردنا تبيانه في سياق الحديث عن وحدة التجربة مع النصّ، وحاكمية النصّ للتجربة في ضوء ما عرض له القرآن من حقائق، سواء في الدنيا، أم في الآخرة على ضوء ما تبيّن لنا في حديثنا عن الأنبياء والمترفين، وما تميّز به كل منهما من عقيدة ومنطق، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٣.

والشهادة، فكن أنت أنت حيث أنت لتشهد على ذاتك فيما يكون منها ولها... ولا شكّ في أنّ لهذا الكلام دلالة واضحة على انعكاس صور الأشياء والأحوال بين عالمي الغيب والشهادة، وخاصة أقوال المترفين والمستكبرين والذين يلحقون بهم ممّن استضعفوا وأترفوا في الحياة الدنيا.

وكيف كان، فإن هذا الحوار القرآني كاشف عن حقيقة امتداد هذا المنطق المترف من الدنيا إلى الآخرة، فلا يُقال: إن المستضعفين أكرهوا على أن يكونوا مترفين وتابعين، بل هم اختاروا أن تكون لهم هذه المخاصمة في النار، فلا غرابة عليهم أن يقولوا: يا ليتني لم أتخذ فلان خليلاً، أو كيف أُحشر أعمى وقد كنت بصيراً، إلى غير ذلك من الأقوال التي لو سمح له بالعودة إلى الدنيا لعاد إلى سيرته الأولى، وكان مترفاً ولم يسأل عن شيء من هذا إطلاقاً، لأنّ الشيطان استهواه، فجعله أسير ترفه وطغيانه. وهكذا، فإنّ منطق المترفين في الآخرة هو تجسيد حقيقي لما يكون عليه المترف في الدنيا، وما على المستضعف المترف المأسور لمنطق قادة الشرّ ورؤساء النعم الذين يتغذّون على سمعه وبصره وطاعته وركونه إليهم، إلاّ أن يبادر إلى البراءة من المستكبرين قبل أن يحشروا إلى الله تعالى جميعاً، ويتبرّأوا من بعضهم البعض، وقبل أن يقول الضعفاء: لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منّا، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

إنّه مشهد حقيقي يعكسه القرآن من الآخرة إلى الدنيا، لتكون للإنسان فرصة التحوّل والخروج من ظلمات الجهل والترف إلى الإيمان والعمل الصالح، لكي يكون الإنسان بمنأى عن هذا المصير في الندامة والعذاب والحسرة. وبحق نقول: إنّ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦ – ١٦٧.

الهدف من هذا التصوير القرآني لحقيقة هذا المشهد الحواري الشاحب بين المستكبرين والمترفين والمستضعفين، هو تبيان هذه الحقيقة للإنسان، بحيث يعرف أن هذا هو شهوده ومشهده اليوم وغداً في محضر الحسرة فيما لو ركن إلى ترفه وغروره وتقليده، وفيما لو استمر بالاستجابة لمنطق الترف في الدنيا. فإذا كان الإنسان بصيراً بحاله، وواعياً لمقامه، فما عليه إلاّ حضور مشهد ذاته ليخرج من ظلماته وترفه ليكون ممّن حقّ القول فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[1].

إذن، مما تقدّم، نستطيع القول: إنّ منطق المترفين في الآخرة، في ضوء منهجنا الموضوعي، ليس غريباً عن تجربة الإنسان في الحياة، لأنّ ما تقتضيه حقيقة هذا المنهج، هو أن يتمكّن الباحث من توحيد الرؤية، أو على الأقل، أن يستنطق النص أو الآية القرآنية في ضوء التجربة، لا بمعنى إخضاع القرآن للتجربة، بل بمعنى محادثة النص وسؤاله عمّا تعنيه لغة الحوار في النار، أو في الآخرة، أو في المحشر، فيما لو لم يكن لها معنى انعكاسي على حياة الإنسان في الدنيا، وخصوصاً بعد أن أفادنا النص أن منطق المترفين والمستكبرين في الدنيا، هو الذي تسبب بالفساد للناس، وإلاّ فما يكون معنى قولهم غداً، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾، بعد أن كان قولهم في الدنيا، قوله تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، فهل لهذا القول من معنى غير أنّ هؤلاء خافوا غارات المترفين، فاختاروا أن يكونوا منهم ولهم لكي يكونوا في مأمن من غاراتهم، وهم يعلمون أنه الهدى من ربّهم. فإذا جاء يوم الحشر علموا أن ما كان منهم في الآخرة هو ذاته ما كان منهم في الدنيا فلم يكونوا بمنجاة من العذاب، وهذا هو مقتضى التوحد بين النص والتجربة.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

ولعلّ تقسيمنا لهذا المبحث إلى مترف في الدنيا ومترف في الآخرة، هو نابع من كوننا أردنا إيجاد الرابط الموضوعي بين ماينبغي أن يكون عليه الإنسان في حياته الدنيا، وبين منطقه في الآخرة. وقد بيّنا في هامش هذا المبحث كيف أن المسلمين في عصرنا الحاضر يتهرّبون ويخافون من أن يتخطّفوا، فيلجأون إلى المترفين والمستكبرين لحماية أنفسهم، وهم يعلمون علم اليقين أن هؤلاء ليسوا مغنين عنهم في النار، وهذا ما يستدعي منهم في الدنيا أن لا يكونوا في نار العذاب، وعلى فرض أنهم تخطّفوا في الدنيا، فإنّ ذلك يبقى أفضل لهم من أن يكونوا انعكاساً لما يتبرّأون منه غداً، ولعلّ ما هم فيه من عذابٍ اليوم هو تعبيرٌ عن حالهم غداً. والله أعلم.

غاية القول: إنّ المستضعفين يعون تماماً وهم في حال الدنيا أن المستكبرين ليسوا على الهدى، وأنهم مفسدون في الأرض قولاً وفعلاً، فإذا ما جاء النصّ ليؤكّد هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[1]، فلا يكون قد أضاف شيئاً جديداً إلى ما هم عليه من كبرياء وطغيان، وهذا ما يؤكّد حقيقة الامتداد أولاً، وحقيقة الانعكاس ثانياً، وذلك إنما يكون من خلال التجربة في الدنيا بعد أن يكون هؤلاء قد خرجوا عن سبيل الهُدى، واتحدوا مع مصيرهم في الآخرة فيما أُعدّ لهم من عذاب، وقد رأى المفسّرون أن الآية نزلت يوم بدر من قريش على ما أفاد الطوسي في التبيان[2]، وأنّها تعني جميع قادة الكفرة وأئمة الضلال، كما يرى الطبرسي في تفسيره[3]، وقد جاءت في سياق الحديث والتمنّي من المستضعفين أنهم لو أطاعوا الرسول ﷺ ولم يطيعوا المترفين، للتدليل على أنّ طريق الهدى هو طريق الرسالة، ولكن النتيجة تقلّب وجوههم في النار بما أدّوه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٢) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٨، ص٣٦٣.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ، ج٨، ص١٨٤.

من طاعة لساداتهم وكبرائهم، وهذا ما يؤكّد لنا حقيقة الوعي من خلال التجربة الدنيوية التي قالوا فيها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فلو أنهم التفتوا قليلاً وبعيداً عن وحي الشيطان، لما امتد بهم الحال إلى أن يكونوا أسرى العار والنار في الدنيا والآخرة.

لقد تبيّن لنا من مباحث الترف أنّ النصوص القرآنية ليست مجرّدة عن الواقع، وخاصة القصص القرآنية التي تعرض لأحداث الأنبياء مع أقوامهم، وإنّما هي تلحظ الواقع من خلال التجربة التاريخية والسنن الحاكمة فيها. هذه السنن التي تجري على اللاحقين كما تجري على السابقين، ويكفي أن يعرض الباحث بطريقة موضوعية لمنحى القصة القرآنية فيما تعرض له من أحداث مع النبي وقومه، حتى تتجلّى لنا حقيقة الموقف الإسلامي الرسالي من أي موضوع يراد معالجته. وعليه، فإنّ ما اتضح لنا من خلال التقسيم الذي اعتمدناه أن ما جاء من حوارات، سواء في الدنيا، أم في الآخرة، ليس هو إلا انعكاس حقيقي لما تؤدّيه التجربة في النهاية، باعتبار أن النص القرآني الذي يُتحدث فيه عما يحصل من حوار، أو قول متبادل بين الضعفاء والمستكبرين، قد سبق للقرآن أن عرض له في سياق الواقع والتجربة ولم يلتفت إليه، وهذا يدلّ بشكل قاطع على أن التوحد بين النص والتجربة، لا بدّ أن يكشف عن حقيقة الخطاب المنتظر الذي سبق أن قدّمه الأنبياء في تجاربهم، كما قال تعالى في سورة هود على لسان الأنبياء، أو في سورة الأنبياء، ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ إذ كان الخطاب منهم دليلاً على صيرورة هذا المعنى الذي استكبر عليه الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

إنّه مشهد حقيقي من مشاهد التجربة البشرية صاغته يد العناية الإلهية في عالم آخر لتدلّل من خلاله على حقيقة انعكاس الموقف، الذي لا بدّ أنّ الإنسان المستكبر والمستضعف صائر إليه، وهذا ما أردنا توضيحه لجهة ما اعتمدناه من اتجاه موضوعي توحيدي يخرج النصوص القرآنية عن مجرد كونها تعبيراً عن

حقائق غير مشهودة لتكون حقائق حاضرة ومؤثرة في صياغة الموقف من الترف والمترفين، طالما أن هؤلاء هم الذين عاندوا النبوّة وحالوا دون أن يكون أكثر الناس على سبيل الهدى، وقد أشرنا إلى حقيقة أن هؤلاء الناس مثلما أدركوا أنه يمكن أن يتخطّفوا فيما لو اتبعوا النبي، كان من الممكن أن يدركوا أيضاً مساوئ اتباع المترفين والركون إليهم فيما لو عقلوا عن الله تعالى، وأطاعوا الرسل فيما جاؤوا به من عند ربّهم.

وفي هذا المجال نقول، لعلّنا قدمنا رؤية جديدة في هذا الاتجاه، ونسأل الله أن تكون رؤية واعية وواضحة لمن تأمّل فيها لجهة ما تعنيه من استنطاق للنصوص القرآنية في ضوء حالات التجربة البشرية، لأنّ النصّ القرآني، هو نصّ حيّ في كل زمان ومكان، ولا بدّ من إخضاع التجربة له لاستخلاص الموقف الحقيقي مما تعرّض له، وهذا ما كان منّا في سياق الحديث عن المترفين وما تميّزوا به من عقيدة ومنطق في الدنيا والآخرة.

الفصل الثاني

المترفون وصناعة الفساد

تمهيد الفصل

المبحث الأول: أنواع الترف والفساد

أولاً: بين الترف والفساد

خلاصة المبحث وتوضيح المطلب

المبحث الثاني: أنواع الترف والفساد

أ - الترف المادي/ الدنيوي

ب- الترف الديني/ السياسي

المبحث الثالث: المترفون وصناعة الفساد

أ - الحكام وصناعة الفساد

ب - العلماء وصناعة الفساد

تمهيد الفصل

تقدّم الكلام في معنى الترف والمترفين لغةً ومفهوماً، إضافة إلى عقيدة المترفين ومنطقهم في جميع حالاتهم ومآلاتهم سواء في الدنيا، أم في الآخرة، في الدين، أم الدنيا، وقد أوضحنا أن المترفين ليسوا فقط المتنعمين وأصحاب الثروات والنفوذ، أو قادة الشر، وإنّما هم أولئك الذين اختاروا الدنيا على الآخرة، والشرّ على الخير، والباطل على الحق، وهم يشكلون أغلبية المجتمع الإنساني.

ولهذا، نرى أن مبحث الترف والفساد لا ينفصل عمّا تقدّم بحثه، وكان لا بدّ من التعريف بالترف والمترفين، تمهيداً لمبحث الترف والفساد، على اعتبار أن المترفين هم المفسدون في الأرض،.. وهذا ما ينبغي التمهيد له في هذا المبحث لتبيان حقيقة الموقف الإسلامي الرسالي من الفساد والمفسدين، باعتبار أن المترفين بما هم قادة ورؤساء، وبما هم بشر تابعين لأهل الترف يصدرون عنهم ويسمعون لهم، لا ينفكّون عن الفساد في الأرض والاستكبار فيها على نحو ما بيّنّا في الفصل السابق، حيث تبيّن لنا أن شكوى الملائكة إنما صدرت عنهم لكونهم مدركين لهذه الحقيقة في الأرض، حقيقة الإفساد وسفك الدماء، وغير ذلك مما ينطبق على المترفين.

ولعلّنا لا نخطئ القول: إن ما عرض له القرآن في موضوع الفساد والترف يشكّل أساس هذا البحث لكون الفساد والإفساد ليس حالة واحدة، أو موضوعاً واحداً، وإنّما يختلف باختلاف ما يكون عليه الإنسان من التزام وانتماء ومبادئ وقيم، هذا فضلاً عمّا يكون عليه من حالات روحية ومادية تدفع به إلى أن يكون صالحاً أو فاسداً. كما

أن القرآن، فيما عرض له، لم يفصل بين المفسدين والمترفين، بل اعتبرهم حالة واحدة فيما يؤدّونه من وظائف وأعمال، ويدّعونه من اعتقاد ومبادئ، وقد بيّنا أن آيات المترفين كلها تلحظ حالهم من حيث هم كافرون بالرسالة والرسول، ومقلدون لآبائهم، ومجرمون فيما أترفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ ويكفي أن نلحظ معنى إجرام هؤلاء وظلمهم في السياق الذي جاءت فيه الآية المباركة، حيث قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[1].

ويكفي للتدليل على معنى الإجرام هنا أن نستفيد مما ذكره القرآن عن قوم لوط، حيث قال تعالى: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾[2]. والإجرام هنا، كما تعلم، استحق أن يكون له عذاب الاستئصال، لأنّه بلغ قمّة الفساد، وما جاء في سورة هود الآنفة يشير إلى حقيقة هذا الإجرام الذي تولّد عن كون الناس لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، إلاّ قليلاً ممن أنجينا، حيث بيّن بالاستثناء المنقطع نجاة القليل بنهيه عن المنكر، فلو نهى الكثير كما نهى القليل لما أهلكوا على ما أفاد الشيخ الطوسي[3].

إنّ التمهيد لمبحث الترف والفساد، إنّما يهدف إلى تبيان طبيعة العلاقة بين المفسد في الأرض وما يكون عليه من وعي وإدراك لما يقوم به من قول وفعل، وبين غيره من المفسدين الذين لا يعون ولا يدركون لحقيقة فعلهم، باعتبار أن الإنسان قد يصدر عنه الإفساد دون وعي منه لما أتى به من فعل أو قول، وهذا ما يقتضي منّا التمهيد لدراسة فعل الفساد في الأرض من حيث كونه صادراً عمّن يعون هذا الفعل،

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٥٧ – ٥٨.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، البيان في تفسير القرآن، م. س، ج٦، ص٨٢.

ويدركون أنهم صانعون له، وليس لكونه مجرّد فعل، بل دراية به، وقد أفاد فأجاد الراغب فيما عرض له في معنى صناعة الفعل، إذ هو يرى أن كل صناعة فعل، وليس كل فعل صناعة[1].

كما سنبيّن أيضاً في هذا المبحث أنواع الترف، فهل هو نوع واحد، أم هو أنواع؟ وهل أن المترف هو ممّن ينطبق عليه صناعة الفعل بما هو فساد؟ على اعتبار أنّ المترف هو دائماً في حالة إفساد وإجرام في المجتمع، كما أوضحنا في المبحث السابق.

هناك أسئلة كثيرة تبنى على فرضيات لا بدّ من التوقف عندها والتعرض لها بالبحث والدراسة لاستكشاف حقيقة الموقف من المترفين وأنواعهم، حيث نرى كيف أن المترف ليس مجرّد إنسان عادي، وإلاّ لما اختار الله تعالى له أن يكون مقابلاً للرسول والرسالة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾. إنّ مَن يكون له هذا الموقف ليس مجرّد إنسان مترف، وإنّما هو إنسان مدرك لحقيقة موقفه، وعازم على مواجهة النبوة والرسالة، ومتّسم بالإجرام لكونه واعياً بقوله وفعله. وعليه، فإنّه لا معنى لأن نكتفي بدراسة الفساد، أو الترف من حيث هو مجرّد فعل، بل لا بدّ من التعمّق في مدلول هذا المصطلح ومفهومه لنكون على بيّنة مما يلجأ إليه المترفون لتشويه حياة الناس، وتعريض اجتماعهم للخطر، هذا فضلاً عمّا يمكن أن يتسبّب به هؤلاء من أخطار على مستوى عقائد الناس وأخلاقهم.

نعم، هناك أسئلة كثيرة لا بدّ من التوقّف عندها، إضافة إلى تفاصيل متعلقة بمدلول الآيات القرآنية، حيث رأينا أنه لا بدّ من تفكيك موضوع الترف ودراسته من خلال ملاحظة التجربة الإنسانية، ذلك أن القرآن، فيما يدعو إليه من تدبّر، يريد لنا أن نستوعب معنى أن يكون المترف مفسداً ومجرماً، ومعنى أن يكون على علاقة

(١) الراغب، الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا ت)، ص٢٩٤.

سلبية دائمة مع الأنبياء والمرسلين، لأنّ الوعي بهذا المعنى لا بدّ أن يدلّل على حقيقة ما يهدف القرآن إلى تبيانه في ضوء اختيار المترف لمواجهة النبوّة، وكأنّ هذا فيه ما يشعر بأنّ الصراع إنّما هو ممتدّ ومستمرّ في الحياة من خلال وجود هؤلاء المترفين في حياة الناس، ولا بدّ من أن يُخشى منهم على مصالح المجتمع الإنساني، وفي هذا إشارة دقيقة أيضاً إلى معنى مشروعهم المتكامل إذا صحّ التعبير في مواجهة مشروع الأنبياء في كل زمان، بحيث لا يقتصر الأمر على المعتقد والأخلاق، بل يتجاوز ذلك إلى الحياة العملية وكل مجالات الاجتماع البشري من اجتماع واقتصاد وسياسة وثقافة وحضارة إلى ما هنالك مما يعيشه المجتمع ويتفاعل معه.

لذا، فإنّنا في هذا التمهيد سنحاول جاهدين أن نعثر على إجابات دقيقة في موضوع الترف والفساد، وقد يكون ممكناً تبيان حقيقة الموقف من المترفين لا من حيث هم مجموعة تملك الثروات وتؤثّر على عقائد الناس وحياتهم العملية، بل من حيث هم مجموعات وأنواع في المجتمع قد دلّت التجارب عليهم، وأظهرت أن المترف ليس هو الرجل الاقتصادي وحسب، بل هو السياسي والديني، وهذا ما يدخل تحت عنوان أنواع الترف، لأن الصراع مع النبوة في المجتمعات الإنسانية ولّد الكثير من أنواع الترف، وحوّل الترف من كونه حالة مالية واقتصادية ليكون حالة دينية وسياسية وفكرية وثقافية، ولعلّنا لا نخطئ القول: إنّ أكثر مصائب المجتمع الإسلامي تولّد من الترف الديني وليس من الترف الاقتصادي، أو المالي. نعم إنه الترف الديني الذي انتقل بالفرعونية والطاغوتية من كونهما حالات استكبار وكفر وعصيان لله تعالى تواجه النبوّات، لتكون حالة إيمان وإسلام كاذب تدّعي حماية المقدّسات، وتلعب الدور والوظيفة ذاتها التي سبق لفرعون وقارون ونمرود أن قاموا بها في مواجهة النبوّة. وهذا ما يمكن النقاش فيه على النحو الذي يؤدّي إلى استكشاف الموقف الرسالي من المترفين والمفسدين، سواء أكانوا في مواجهة النبوّة، أم كانوا في مواجهة أولياء الله في كل زمان ومكان.

كما سنمهّد في هذا الفصل أيضاً إلى مبحث المترفين والمصير المشؤوم الذي أرشد إليه القرآن، إذ تبيّن جملة من الآيات وفقاً للرؤية الموضوعية أن الانتصار كان وسيبقى حليف المصلحين في الأرض وسيؤول أمر المترفين والمفسدين إلى الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]، وهنا تبدو الملاحظة الأساسية، وهي أنه قال تعالى مترفيها ولم يختر أي مصطلح آخر، ما يدلّل على ضرورة بحث هذا المصطلح واكتشاف مدلولاته وفاقاً لرؤية شاملة تبدأ من النص، وتنتهي بالتجربة الإنسانية، كما أفدنا في بحثنا السابق.

المبحث الأول: أنواع الترف والفساد

أولاً: بين الترف والفساد:

إذا كان الترف يعني التنعم في الملاذ والتوسع في النعم، كما أفاد الراغب في المفردات[2]، وأن يكون المترف هو المنعم في الدنيا بغير طاعة الله تعالى، والمتروك يصنع ما يشاء كما أفاد الطريحي[3]، فإنّ الفساد يعني خروج الشيء عن الاعتدال كثيراً كان هذا الخروج أو قليلاً، إذ يُقال: فسد فساداً وفسوداً، فهو فاسد، والاسم الفساد، ويُضادّه الصلاح، ويستعمل، كما يرى الراغب في النفس والبدن والاشياء الخارجة عن الاستقامة[4]، وقد عرّفه الزمخشري بأنّه خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه؛ الصلاح، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن..[5].

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٧٠.
(٣) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، م. س، ج٥، ص٣٠.
(٤) الراغب، الأصفهاني، م. ع، ص٣٩٣.
(٥) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج١، ص٧٠.

لقد ذكر «**الدامغاني**» في قاموس القرآن أن «**فسد**» تأتي على ستّة أوجه[١]، فهي مادة تأتي بمعنى المعصية[٢]، والهلاك[٣]، والقحط وقلّة النبات[٤]، والقتل[٥]، والخراب بالظلم والجور[٦]، والسحر[٧]، وأضاف صاحب القاموس الجامع الفساد بمعنى قلة البيع في الزراعات والبيوت ومحق البركات من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، والمفسدة خلاف المصلحة[٨].

لا شكّ في أنّ ما ذكره الدامغاني ليس محصوراً بهذه الأوجه، وإنّما يمكن أن تستفاد أوجه أخرى لمعنى الفساد بما هو خروج عن حال الاستقامة، وقد سبق الكلام منّا أن المترفين وإن كانوا في كثير من أقوالهم وأفعالهم قد تجاوزوا حدّ المعاصي لدرجة الكفر والشرك والطغيان، إلاّ أنهم اعتبروا مفسدين في الأرض كفرعون وسائر المترفين الذين واجهوا وعارضوا الدعوة النبوية، كما قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ﴾﴿قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٩]، فالفساد هنا لم يأتِ على أي وجه من الوجوه التي ذكرها الدامغاني، باعتبار أن الفساد، كما أفاد الراغب، قد يستعمل في النفس والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، فقد يكون الفساد في شيء، وقد يكون فساداً مطلقاً في كل الأشياء، سواء الخارجة أم الداخلة، في النفس والواقع معاً، وهذا النوع من الفساد لا يكون إلاّ من المترفين الذين يجمعون كل أوجه وأنواع الفساد في أقوالهم وأفعالهم، ولهذا سمّاهم القرآن بالمجرمين والعالين، والمستكبرين، حتّى أن القرآن حين أراد أن يضع عنواناً للصراع في واقعه الاجتماعي الإنساني، فإنّه لم يختر مصطلحاً آخر يعبّر به عن

(١) الدامغاني، الحسين بن محمد، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص٣٥٧.
(٢) قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني لا تعملوا المعاصي ونحوه..
(٣) الفساد الهلاك، كما في وله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني لتهلكن في الأرض مرتين.
(٤) الفساد القحط، كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني قحط المطر وقلة النبات.
(٥) الفساد القتل، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني ليقتلوا.
(٦) الفساد الخراب بالظلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ يعني يخربونها بالظلم.
(٧) الفساد يمعنى السحر، كما في وله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يعني السحرة.
(٨) انظر: الغديري، عيسى إبراهيم، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجة، بيروت، ط١، ١٩٣٨، ص٤٢٧.
(٩) سورة يونس، الآية: ٩١.

الصراع السلبي المحتدم في الحياة الإنسانية سوى الترف. فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ...﴾، فلم يقل المفسدين، وإنّما قال المترفين للتدليل على أن هذه الكلمة تستبطن الفساد، كما في قوله تعالى عن فرعون، وكما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، حيث نجد أن قوله تعالى تتابع ليؤكد على أن الأمر لم يكن مجرّد فساد في وجه من الوجوه التي ذكرها الدامغاني، وإنّما أضاف إليها القرآن، قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾. ما يؤكد أن المترف ليس مجرّد مفسد في الأرض ويعمل خلاف المصالح الاجتماعية والسياسية... بل هو مجرم وظالم وقاتل ومستكبر، فضلاً عن كونه كافراً ومشركاً ومكذّباً بلقاء الله تعالى كما أفاد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا..﴾[1].

ممّا تقدّم، يمكن القول إنّ كل مترف مفسد، وليس كل مفسد مترفاً، فقد يكون المفسد عاصياً، وفاسقاً، ومنافقاً[2]، وقاتلاً، وساحراً، ولا يكون مترفاً. أما المترف، كما جاء في التعريف لغةً ومفهوماً، وفي جميع الآيات التي عرضت لموضوع الترف، فهو الذي يتجاوز هذا كلّه إلى الفساد في جميع شؤون الناس، سواء في مجال الاعتقاد والأخلاق، أم في مجال السلوك والعمل[3]، بدليل ما تضمنته الآيات القرآنية عن المترفين.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٢) من جملة ما عرض له القرآن في شأن المنافقين وما يزعمونه من صلاح وإصلاح، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

(٣) يقول العلامة محمود الهاشمي: «لا إشكال في أن عنوان الفساد يدلّ على كون العمل قبيحاً ومستنكراً تنفر منه الطباع، وليس هذا واضحاً إلا في مثل الظلم والتعدّي على الحقوق الأولية للإنسان، لا الأمور الأخرى الفكرية والعقائدية، أو السياسية التي هي محل نظر وبحث واختلاف بين الناس، ولعلّه لهذا السبب لا نجد في القرآن الكريم إطلاق المفسد أو الفساد في الأرض على حالة الشرك أو الاعتقادات الباطلة، بينما نجده يطلقه غالباً على موارد التعدّي والتجاوز على الأموال والأنفس وما اليها، وقد رأيت أن صاحب القاموس يفسّر الفساد بأنّه أخذ المال ظلماً». را: الهاشمي، محمود، مقالات فقهية، شمول حكم المفسد في الأرض لغير من شهر السلاح وسلب الأمن من سائر أنواع الفساد، الغدير، ط١، ١٩٩٦م، ص١١١.

ولعلّ أهم ما يمكن التركيز عليه في هذا السياق هو هذا الاضطراد والتناقض المشار إليه بين موقع النبوّة وموقع المترفين، وكما يقول الصدر: إنّ النقيض الطبيعي للنبوّة هو موقع المترفين، وهذه سنّة من سنن التاريخ[1]. وهذا إن دلَّ على شيء، فإنّه يدلّ على موقعيّة المترف بما هو مفسد في الأرض، ويقابل مشروع النبوّة فيما يحملهُ من مشروع كفر وجحود وعصيان وإفساد في الدين والدنيا!!

لسنا في هذا المبحث بصدد التهوين أو التقليل من خطر المفسدين في المجتمع، وإنّما نريد تحديد وتظهير حقيقة المصطلح وما ينطوي عليه من مدلولات، إضافة إلى التفكيك بين موضوع الترف والفساد على النحو الذي نستطيع معه التمييز بينهما في ضوء النصّ والتجربة معاً. ولهذا، رأينا أن يكون المبحث بين الترف والفساد، وكان دافعُنا إلى هذا الأمر، هو تساؤلنا عن سرّ ورود مصطلح الفساد في القرآن لأكثر من مائة مرّة، في حين نجد أن مصطلح الترف والمترفين قد ورد ثماني مرّات فقط، وهو حيث ورد جاء في سياق علاقة سلبية مع النبوّة، خلافاً لمصطلح الفساد الذي تراوح ذكره بين أن يكون مجرّد معصية، أو ذنب، أو فعل سلبي في شيء من الأشياء، أو أخذ المال ظلماً، فعل يمكن التوبة منه والإقلاع عنه، وبين أن يكون ترفاً جامعاً لكل المساوئ والقبائح في الدين والدنيا على نحو ما وصف فرعون وهامان وقارون وسائر الطواغيت. ولهذا، فإنّ ما نقوم به في هذا المبحث، هو محاولة صادقة للتعريف بهذين المصطلحين والتمييز بينهما في ضوء ما تفيده التجربة، حيث نجد أنّ القرآن يفصل بين المفاهيم تاركاً للإنسان تعقّلها في ضوء وعيه وعقله عن الله تعالى وتجربته في الحياة، وهذا ما عنينا به سابقاً أن تكون للباحث قدرة استنطاق النصّ القرآني بهدف استخلاص الموقف الإسلامي، وقد بيّنّا في البحث السابق أن المترف في عقيدته ومنطقه هو فاسد ومفسد في الأرض، بل هو يقف على قمّة الفساد والإفساد، وهو لكونه كذلك

(١) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي في المدرسة القرآنية، م.س، ص٥٩.

استحق أن يكون نقيضاً للنبوّة في ميدان التاريخ، وليس على الإنسان إلاّ أن يستوعب هذه السنّة القرآنية، وأن يعمل وفاقاً لها، لأنّ أحداً لن يكون له استثناء من هذه السنّة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(1).

لا شكّ في أن القرآن لحظ كل حالات الفساد التي يمكن أن تعرض للإنسان في حياته، من قبيل ما أشار إليه عن فساد المنافقين، أو فساد المخلّين بالأمن ويقطعون الطريق(2)، أو فساد الذين ينقضون عهد الله تعالى، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل. إلى غير ذلك مما انطوت عليه الآيات القرآنية من معانٍ في حالات المفسدين وشؤونهم، حتى أننا نجد القرآن يعرض لحالات التقابل بين الناس المفسدين في الأرض، والناس الذين يدفعون هذا الفساد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ ﴾، في مقابل ذلك الإنسان الذي إذا تولّى سعى في الأرض ليُفسد فيها(3)، وهذا ما عرض له العلاّمة الطباطبائي بعبقريّة فائقة في

(1) سورة البقرة، الآية: ٢١٤، ورا: أيضاً: سورة التوبة، الآية: ١٦، وآل عمران، الآية: ١٤٢.

(2) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

(3) قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وهذا ما يمكن مقابلته، كما يرى العلاّمة الطباطبائي، مع قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾إلخ. إذ هو يُفيد الوصف، مقابل الوصف، أي مقابل المنافق المفسد، يوجد المؤمن المصلح. ولهذا، فإنّ الفساد الطارئ على الدين والدنيا من قبل من لا هوى له إلا في نفسه لا يمكن سدّ ثلمته إلاّ بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه في الله تعالى، وبذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾، ولا شكّ أن هذا التقابل هو المشار إليه في بحثنا هذا، وهو يبدأ بين الأنبياء والمترفين، وينتهي بكل تقابل ينشأ في صراع الحياة، سواء في الحياة الخاصة، أم في الحياة العامّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾.

را: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٢، ص٩٩ ١٠٠.

تفسيره القيّم في المجلّد الثاني من تفسير الميزان، الذي عرض فيه لحقيقة هذا التقابل فليراجع في مكانه (ص١٠٠).

إذن، المترف يقف على قمة الفساد والإفساد في الأرض، أما المفسد، بما هو إنسان خارج عن حدّ الاستقامة، سواء في نفسه، أم في الواقع، فهو تميّز عن المترف في كونه مشتركاً معه في الإفساد وفي وجه من الوجوه وليس من كل الوجوه كما تقدّم ذكره من أن المترف يتجاوز إفساده شؤون نفسه ودينه الخاص ليكون له مشروعه في مقابل الرسول والرسالة، كما كان حال كل المترفين على الساحة التاريخية منذ آدم عليه السلام حتى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، وستبقى للمترفين هذه الخصيصة حتى قيام الساعة، وقد أفادت التجارب الإنسانية أن المترفين، وخاصة في عصر الرسالة الإسلامية، لم يكونوا مجرّد مفسدين في الأرض بنحو من الأنحاء، وإنّما كانوا مفسدين في الدين والدنيا، ومجرمين، ومستكبرين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات التي تخرج المترف عن كونه مجرّد إنسان فاسد ومفسد، لتجعل منه إنساناً مستكبراً في الأرض، فيتجاوز حدود إنسانيته ليجعل من نفسه إلهاً يعبد من دون الله تعالى، ومتميزاً بالذبح والقتل والاستضعاف والاستخفاف، وغير ذلك مما وُصف به من صفات في القرآن الكريم، وفي هذا السياق يمكن لنا أن نتأمّل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، هذا الوصف الذي سبق سائر الأوصاف من استضعاف وذبح واستحياء، إذ قد يكون في ذلك إشارة إلى حقيقة ما ينبغي

(١) سورة القصص، الآية: ٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

التركيز عليه في مبحث الترف والفساد، حيث إنّ العلوّ والاستكبار في الأرض من مؤدياته أن لا يكون في المستكبر أي جهة، أو أي وجه من وجوه الصلاح، هذا فضلاً عمّا يفيده ذلك من إفساد للغير، سواء أكان إنساناً، أم مجتمعاً[1].

وهكذا، فإنّ معنى الإشارة القرآنية الآنفة الذكر، هو الإرشاد إلى حقيقة ما يميز المترفين في المجتمع عن سواهم، من حيث هم مستكبرون في الأرض، ويدّعون الألوهية، ويفسدون في الأرض، ولهذا، نجد ختام الآية يؤكّد على أن فرعون كان من المفسدين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ فلو أن القول جاء في سياق مجرّد الفساد دون أن يكون مسبوقاً بهذه الصفات، لكان من الممكن أن نلحظ الفساد في معنى من المعاني، أو في شيء من الأشياء، ولكنه جاء مسبوقاً بصفات العلوّ والاستكبار، ما يؤكّد لنا معنى الفساد والإفساد بشكل مطلق، والذي استحق به أن يكون مجرماً ومستحقاً للاستئصال بالغرق، تماماً كما استؤصل غير الفراعنة بالريح، أو بالخسف، أو بحجارة من سجّيل، وهذا هو حال المترفين دائماً أن مصيرهم الاستئصال بما يختاره الله تعالى لهؤلاء من أنواع العذاب. وإذا كانت أمة الرسول محمد ﷺ قد أستثنيت من هذا الاستئصال كرامة للرسول ﷺ وحضوره بين ظهرانيها[2]، فإنها حتماً لم تستثن من حاكميّة السنن التاريخية لها المنوطة بإرادة الإنسان واختياره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

يبقى أن نقول: إنّ ما يميّز المترف عن المفسد، وإن كانا يشتركان في بعض وجوه الفساد، هو أن المترف، كما أفاد الطريحي في مبحث اللغة، متروك يصنع ما يشاء،

(١) إنّ مما يدلّ على إفساد المترف لنفسه ولغيره، إضافة إلى ما يُصيب المجتمع من فساد بسببه هو قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

خلافاً للمفسد الذي يخرج عن حالة الاستقامة في نفسه، أو في بدنه، أو في أشياء خارجية. وكما بينّا فيما سبق، أن المدلول اللغوي يُفيد مطلق الإفساد فيما يصنعه المترف لنفسه أو غيره، وليس صدفة أن يستعمل الطريحي فعل صنع للمترف، لما يعنيه الصنع من وعي وإدراك بحقيقة وأثر الفعل المصنوع كما بينّا في تمهيدنا لهذا الفصل، ما يؤكّد لنا حقيقة التمايز بين أن يكون المترف مفسداً في الأرض، وبين المفسد من جهة أو شيء، أو حالة من الحالات، كما هو شأن كل المفسدين الذين عرض لهم القرآن، سواء أكانوا من المسلمين، أم من أهل الكتاب، باعتبار أن القرآن في كثير من آياته التي عرض فيها للفساد، يدلّل على أنّ الفساد هو سمة أكثرية الناس، وقد يظهر منهم في القول أو الفعل، ولولا أن الله تعالى قد قوّم أهل الأرض بالدفع لفسدت الأرض بما كسبت أيدي الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ ما عرض له القرآن في موضوع الفساد في الأرض، وما أمر به الله تعالى من إصلاح وعدل، إنّما يستفاد منه في ضوء التجربة أنّ الفساد، وإن كانت له تحقيقات كثيرة في المجتمع الإنساني، إلا أنه لم يعد مستحكماً بما يجعل منه ترفاً قاتلاً، أو استعلاءً واستكباراً يهدّد الإنسانية بالفاحشة الكبرى، والفساد الشامل، كما كان عليه حال الفرعونية، أو القرشية، أو غيرها من حالات الترف التي كانت تهدد الإنسانية بالفناء، فهو فساد محدود، وقد حدّه الإسلام من خلال الأولياء والصالحين، ومنع منه بالقدر الذي حال دون أن يتمكن المفسدون في الأرض من القضاء على الرسالة، أو على تحريفها بما حقّقه الأولياء من ثورات ونهضات ساعدت على الحدّ من نفوذ المترفين والمسرفين والمفسدين، وحتّمت أن يكون للإسلام دوره الفاعل والمؤثّر في مجريات الأحداث قديماً وحديثاً، وإنّ ممّا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

يدلّ على هذه الحقيقة هو استمرار الإسلام، عقيدة وشريعة، في حياة الناس رغم كل ما تعيشه المجتمعات الإنسانية من فساد، سواء على مستوى النفس، أم على مستوى الواقع بما يعنيه الواقع من فساد في العلاقات الإنسانية، وفي سوء توزيع الثروات، وفي تحريم ما أحلّ الله تعالى، وتحليل ما حرّمه الله، وفي بخس الناس أشياءهم، وفي تحكّم الملوك برقاب الناس؛ إذ إنه رغم كل هذا الفساد الظاهر في حياة الأمم والشعوب، فإنّ الصالحين من عباد الله، بما هم امتداد للنبوّة، لا يزالون في الموقع الذي يحتّم عليهم مناوءة هذا الفساد ومنعه من أن يتحوّل إلى حالة من الترف القاتل الذي يكون من مؤدّياته تهديد الاجتماع الإنساني بالفناء، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

خلاصة المبحث وتوضيح المطلب:

إنّ أحداً من الباحثين، قديماً وحديثاً، لم يعالج مبحث الترف والفساد بالشكل الذي يسمح بالتمييز بين المصطلحات القرآنية، بحيث يظهر المعنى الحقيقي لكل من هذين المفهومين، إذ في الوقت الذي يرى فيه بعض الباحثين ضرورة التمييز بين الفساد في الأرض وحكمه بما هو إفساد في الأرض ونهب أموال وقتل للنفوس، وبين الترف وحكمه بما هو كفر وبغي في الأرض واعتداء على حدود الله تعالى وحدود الناس، يرى آخرون أنّه لا ضرورة لذلك التمييز طالما أن المترف هو المفسد بلسان الآيات والروايات، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقد بيّنّا سابقاً أن منشأ هذا التمييز هو تخصيص المترف بلغة القرآن بما لم يخصّ به المفسد في الأرض، سواء في آيات النفاق، أم في آيات أخرى تحصر الفساد في الأرض وتقيّده تارة بالمحاربة، وطوراً بكونه دعوى غير صادقة من المنافقين،

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

وثالثاً بكونه إفساداً يضاف إلى الأرض؛ باعتبار أن الإضافة «**في الأرض**»، كما يرى العلاّمة الهاشمي، ليست لمجرّد الظرفية، بل يقصد بها تعلّق الفساد ووقوعه على الأرض، إلى غير هذا مما جاء فيه الفساد والإفساد بمعنى السلب والقتل وانعدام الأمن... وهذا ما له أحكامه الخاصة في الشريعة، تختلف عن أحكام الكفّار والبغاة والخارجين على الحكومة الإسلامية. يقول العلاّمة الهاشمي: «**هناك فرق واضح في ارتكاز العقلاء والمتشرّعة بين حكم محاربة الكفّار أو الباغين، وحكم محاربة الناس بملاك الإفساد في الأرض ونهب الأموال والأعراض وقتل النفوس، والتي قد لا تتحقق من الكافر أو الباغي، كما إذا خرج قوم على حكم الإسلام في منطقة دون أن يسلبوا الناس أموالهم، فإنّ هذا لا يصدق عليه الإفساد في الأرض..**»[1].

لذا، فإنّ رأينا في معنى المترف، وما ترشد إليه الآيات في بيان معناه، ليس هو حصرية معنى الإفساد فيما يتعلق بالمال أو انعدام الأمن، أو مجرّد الإفساد في الأرض، وإنّما هو ذلك المعنى الحقيقي لكون المترف وضع في مقابل النبوّة بما هي دين وأحكام وأخلاق، فهو أعمّ من أن يكون مفسداً في الأرض باعتباره جاحداً وكافراً ويتجاوز في إفساده الواقع الاجتماعي وحدود الناس وحقوقهم، ليكون شيطاناً محارباً للّه ورسوله، ويجسّد فيما يحمله من مشروع إبليس فيما يدّعيه من رأي في مقابلة النص، وهدى في معارضة الأمر[2]. ولا شكّ أيضاً في أنّ ما يعبّر عنه المترف من استكبار ليس هو مجرّد استكبار نابع من كونه صاحب ثروة أو نعمة، وإنما هو نابع من كونه مستكبراً بمادته التي خلق منها ما جعله تعبيراً شيطانياً في حياة الأمم والمجتمعات الإنسانية.

إن المترف له وضعية مختلفة عن المفسد في الأرض بلحاظ كون لباب الآيات والروايات يفيد حقيقة اختلاف وضعية كل منهما في المجتمع الإنساني، ذلك أن

(١) انظر: الهاشمي، محمود، حكم المفسد في الأرض، م. س، ص١٠٧ – ١٠٨.

(٢) انظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، دار صعب، بيروت، ١٩٨٦م، ج١، ص١٦.

المترف له وضعية الكفر والجحود والاستكبار على أمر الله تعالى، في حين أن المفسد قد تكون له وضعية النفاق، أو المعصية، أو الخروج على أمن المجتمع، وقد يصل به الأمر إلى أن يكون متميزاً بترفه بأن يتحوّل إلى إنسان كافر وجاحد ويدّعي ما ليس له في مقابل النبوّة، وقد سبق لإبليس أن ادّعى خيرية النار على خيرية الطين..!؟

كما سبق أيضاً لكثير من المفسدين في الأرض أن لحقوا بالمترفين والأبالسة في تاريخنا الإسلامي، فادّعوا بلغة الدين أنهم ظلّ الله في الأرض، متجاوزين بذلك إفسادهم في الأرض ليكونوا قتلة الأنبياء والأولياء، وقد أدّى بهم ذلك إلى أن يكونوا فراعنة وطواغيت يُفسدون في الأرض، ويخرجون على أحكام الله تعالى كفراً وطغياناً، ويدّعون الخيرية في مقابل الأولياء والصالحين من عباد الله تعالى، بل تحوّلوا ليكونوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

غاية القول، في توضيح هذا المطلب، وتحقيق المقصد هو أنّه لا بدّ من تفكيك المصطلح القرآني في ضوء الآيات القرآنية والروايات الشريفة على النحو الذي يمكّن الباحث من استخلاص نتيجة، أو موقف قرآني يُلخص فيه حقيقة ما ترشد إليه الآيات. ومن هنا كان الدافع إلى التساؤل حول ما إذا كان المترف هو المفسد في الأرض؟ وهل كل مفسد هو إنسان مترف؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تثير إشكاليات هامة في سياق هذا المبحث، ولعلّنا وفقنا، بعونه تعالى، إلى حدٍّ ما، وبفهمنا القاصر، إلى طرح ما تقتضيه الإشكالية من فرضيّات يمكن أن يُبنى عليها للتعرّف على أوجه الفساد التي يعرض لها القرآن، هذا، بالإضافة إلى التساؤل المشروع حول الحدود التي تفصل بين الترف والفساد، وقد أشرنا إلى أنّ السؤال الجوهري في هذا المبحث، هو لماذا خصّ المترفون دون المفسدين ليكونوا في مواجهة النبوّة؟ وهل هذا يعني أن المفسد لم يكن مقابلاً لها؟ وما هي الحدود التي تفصل بين المترف والمفسد؟

لقد أشرنا، فيما اتسع له المبحث، إلى أن المترف هو إنسان مفسد في الدين والدنيا، وأن المفسد يمكن أن يكون مترفاً فيما لو اختار أن يشرح بالكفر صدراً، بحيث يكون له ما للمترفين، كما حصل في التجربة التاريخية للمسلمين، حين اختار الكثيرون منهم أن يكونوا متداداً للفراعنة والطواغيت فيما اختاروه من كفر وجحود تحت عناوين دينية وإسلامية. نعم المفسد في الأرض، فيما له من معنى خاص من إفساد في المال وحفظ الأمن والنفس والعرض، له أحكامه الخاصة بلسان الآيات والروايات، ولكنه ليس ترفاً على نحو ما بيّنّا في معنى الترف وما له من عقيدة ومنطق في مقابل النبوّة، بل في مقابل الأمر الإلهي، والحق الإلهي، فما بالنا لا نظهّر هذا المعنى للمترف من حيث كونه مفسداً في الدين والدنيا.. ومحارباً لله ورسوله!؟.

وإذا كان بعض الباحثين يرى بأن ما جرى في تاريخ المسلمين هو إفساد في الأرض، فإننا لا نختلف معه في ذلك، لأن المترف هو أيضاً إنسان مفسد، لكن يبقى على الباحثين أن يتعرّفوا إلى حقيقة المصطلح القرآني والتساؤل بشأنه، بحيث يسأل لماذا قابل النبوّة الترف، ولم يقابلها الفساد؟

فإذا كان الفعل هو فعل إفساد في الأرض بما تعنيه الظرفية من معنى، وقد قلنا: إنّ الإضافة إلى الأرض ليس للظرفية بل يُقصد بها تعلق الفساد ووقوعه على الأرض كما أفاد آية الله محمود الهاشمي في مبحثه[1]، فإنّ هذا الفعل مما يمكن إدخاله تحت أحكامه فيما يعنيه من قتل وسلب وانعدام آمن، وأما إن كان الفعل هو فعل كفر وجحود واستكبار في الأرض، وكم من فرق بين الإفساد في الأرض، والاستكبار فيها، فهذا مما لا يمكن إدخاله تحت عنوان الفساد من حيث كونه مجرّد إفساد،

(١) يقول الهاشمي: «ومما يدل على أن الظرف ليس لمجرد الظرفية المحضة تكراره في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فإنه إذا كان لمجرّد الظرفية كان تكراراً محضاً، وهذا واضح الرِكّة، فلا بدّ أن يكون لإفادة نكتة زائدة، وهي التي ذكرناها من إزالة صلاح الأرض وإظهار الفساد فيها». انظر: الهاشمي، محمود، حكم المفسد في الأرض...، م. س، ص١١٠.

وإنّما لا بدّ من إدخاله في دائرة الترف والإجرام والظلم الذي يتعدّى فيه الإنسان حدود نفسه ومجتمعه ليكون متعدّياً على الله تعالى فيما يدّعيه لنفسه من ألوهيّة واستكبار، بحيث ينطبق عليه مطلق الإفساد في الدين والدنيا. وعليه، فإنّ معنى الترف هو تقابل الكل مع الكل، تقابل النبوة مع المترفين، وأنّى للمفسد في الأرض أن يكون له هذا التقابل وهذا ما تقتضيه دلالة اللغة أولاً، والمصطلح القرآني ثانياً، لجهة إظهار التقابل مع المترف وليس مع المفسد، وقد أفلح العلاّمة الهاشمي فيما عرض له في مبحث الفساد في الأرض حيث أشار إلى أن الفساد لا يتجاوز كونه تعدّياً على الغير وأخذ المال ظلماً دون أن يكون له أي معنى في مجال الاعتقاد واختلاف الآراء، يقول: «**إنّ الظاهر من عنوان الفساد في الأرض ما يكون إخلالاً بالصلاح، كون الفساد ضدّ الصلاح، لا ما يكون فساداً بحسب نظر وفكر وعقيدة، أو نظام اجتماعي دون نظر عقيدة أو نظام آخر، فإن هذا فساد إضافي ونسبي قد يختلف فيه مذهب عن مذهب.. وظاهر الفساد في الأرض، الفساد المطلق، الذي هو فساد بحسب كل منظار وعقيدة ولحاظ الآية إخلال بالوضع البيعي المطلوب لحياة الإنسان في الأرض على كل حال. فالشرك أو اعتناق المذاهب الباطلة فساد، ولكنه ليس فساداً في الأرض... فكم من فرق بين إفساد الناس بحيث يختاروا بأنفسهم ما هو فاسد لهم، وبين عنوان الفساد المضاف إلى الأرض، الذي يعني أن تكون الأرض غير صالحة للاستقرار والحياة الآمنة بفعل إنسان، فإنّ هذا لا يتحقق إلاّ إذا كان الفعل بنفسه وبلا ضمّ أية حيثية أخرى إفساداً في الأرض، وذلك لا يكون إلاّ في موارد التجاوز على المال والنفس والعرض وسلب الأمن منها...**»[1].

وكيف كان، فإنّنا ندّعي أن ما ذهبنا إليه من تمييز بين الترف والفساد ليس

(١) انظر: الهاشمي، محمود، حكم المفسد في الأرض، م. س، ص١١١.

مجرّد تمييز خاضع لمجرّد رؤية ندّعي أنها تظهر حقيقة المصطلح القرآني، وإنّما هو حقيقة مفاد اللغة وسياق الآيات القرآنية التي تميّز بين المفسد والمترف، وما بينهما من نسبة، هي نسبة الأعمّ والأخصّ مطلقاً[1] حيث نرى المفسد غالباً ما يختار لنفسه العقيدة والمذهب من دون وعي وفهم لحقيقة ما يختاره، أما الشيطان فهو على وعي دائم بما يختاره، تماماً كوعي إبليس فيما أقدم عليه من مخالفة لأمر الله تعالى، وهذا أمرٌ من الوضوح بمكان.

إضافة إلى ما تقدّم، فإنّنا نرى ضرورة أن يبحث هذا الموضوع بشكل مستقلّ، باعتبار أن المفسّرين للقرآن، وكذلك الباحثين في الشؤون الإسلامية، اكتفوا بالمدلول التفصيلي للآيات، ورأوا أنها تعني المترف المتنعّم المنغمس في الشهوات، والمتروك يصنع ما يشاء، ولكنهم لم يلتفتوا إلى أن التقابل الذي جاءت به الآيات بلحاظ المدلول الموضوعي الذي ترشد إليه، يتجاوز مجرّد التنعّم إلى موضوع هو في غاية الأهمية، يتميز فيه المترف عن المفسد، ولعلّ أهمّ تميُّز يمكن لحاظه هو عدم اشتمال الإفساد في الأرض لمعنى العقيدة والآراء الفكرية، في حين أن المترف هو المفسد الذي يشمل فساده على الإفساد في الأرض، وعلى التنكّر لكل رأي وعقيدة وفكر ونظام آخر، فهو على النقيض مما جاء به الدين من تعدّد وتنوّع في الخلق والوجود، ومع كل ما جاءت به النبوّة من تعاليم وأحكام، وقد فصّل الهاشمي الكلام في هذا المعنى لجهة ما يتميّز به الإفساد في الأرض، عمّن يعتنق مذهب آخر فاسد، وهذا إنّما ذهب إليه الهاشمي باعتبار ما تلحظه الآيات من مشروعية لاختلاف الآراء. وهذا ما لا يمكن اعتباره في ما جاء به القرآن عن المترف والمترفين، الذين لا يقيمون وزناً لأي اختلاف، ويرون في العقيدة الأخرى والمذهب الآخر نقضاً لهم ولما يزعمون أن الحق كفراً وجحوداً وطغياناً واستكباراً،

(١) ليس كل مفسد مترفاً، وكل مترف مفسد في الأرض فيما لو أخذنا التوسع في الجانبين على نحو ما تقدّم الكلام.

فهم ليسوا مجرّد مفسدين في الأرض فيما يعتمدونه من أساليب ووسائل لتهديد الحياة الآمنة للناس، وإنّما هم، بالإضافة إلى ذلك، يتنكّرون لكل دعوة، ويرفضون كل عقيدة، ويكفرون بكل دين، فاستحقّوا أن يكونوا، بفعل كفرهم وإجرامهم، مقابل الأنبياء والصالحين. وبهذا يمكن أن ندّعي ملامسة حقيقة الموقف الرسالي من موضوعي الترف والفساد من خلال التمييز بينهما بلحاظ الآيات القرآنية، التي ميّزت بين موقع المترف، وموقع المفسد، وهي وإن كانت، أي الآيات، قد لحظت حقيقة الفساد فيما يزعمه المترف لنفسه، ولكنها مهّدت لهذا اللحاظ بالإشارة إلى حقيقة الاستكبار والظلم والإجرام، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، إلى كثير من الآيات التي تُضيف للإفساد مصطلحات أخرى تخرج المترف عن مجرّد كونه مفسداً، لتجعل منه إنساناً مقابلاً للنبوة والحق، وهذا ما لا يتحقق لكل مفسد في الأرض على نحو ما بيّن الهاشمي[1]، والطباطبائي[2]، وغيرهم ممّن أكّد على تمايز المترف عن المفسد فيما يكون عليه كل منهما من دعوى، سواء في الدين، أم في الدنيا.

وانطلاقاً مما تقدّم، نرى أن هذا المبحث يحتاج إلى مزيد بحث وتحقيق لتبيان الموقف الرسالي في كل جوانبه، وخصوصاً أن التجربة الإنسانية، وما حملته من تعبيرات في مجال الترف والفساد، كفيلة بأن تظهر الكثير من الحقائق التي عرض لها القرآن. فإذا كان المفسد هو الذي يخرج في كثير من شؤون دينه وحياته عن حدّ الاستقامة، فإنّ المترف ليس عنده في دينه ودنياه ما يخرج عليه، لأنه بذاته وفيما يزعمه من دين لنفسه لا يعرف طريقاً إلى الاستقامة، وهو في جميع حالاته

(١) الهاشمي، محمود، م. س، ص١٠٨.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢، ص١٢١.

وأقواله يقف على النقيض مع الحق، وشأنه دائماً الإفساد في النفس والواقع، والصدّ عن سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، فهذه الآيات ناظرة إلى حقيقة ما يستبطنه المترف من فساد في عقيدته ومشروعه، فهو مكذب بلقاء الله تعالى، قد أطغته النعمة التي مَنَّ الله تعالى بها عليه، ومستكبر على الرسل والرسالات وكافر بما جاؤوا به، وفضلاً عن ذلك فهو كافر بالمبدأ والمعاد، كما في قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾. ولا شكّ في أن مَن كانت له هذه العقيدة لا يكون مجرّد مفسد في الأرض يمكن أن تنطبق عليه أحكام الفساد، وإنّما هو مترف يستحق عذاب الاستئصال، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].. والحمد لله ربّ العالمين.

إن المترف عاقبته الاستئصال. أما المفسد فله ألوان من العذاب...

المبحث الثاني: أنواع الترف والفساد

إذا كان معنى الفساد في الأرض هو الخروج عمّا تقتضيه سنن الخلق والاجتماع البشري، وعمّا شرّعه الله تعالى من أحكام لاستقامة شؤون الإنسان في الدين والدنيا، باعتبار أن الله تعالى لا يحب الفساد[3]. وإذا كان من معانيه أيضاً الخروج عن حال

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٣٣ – ٣٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٤١.

(٣) يرى العلاّمة الطباطبائي أن الفساد الذي لا يحبه الله تعالى إنّما هو الفساد المتعلق بالتشريع، وليس ما هو فساد في الكون والوجود والفساد التكويني، وحاشا لله تعالى أن يبغض ما هو مقدّره وقاضيه، فالله تعالى لا يحب الفساد، وهو تعالى إنّما شرّع ما شرّعه من الدين ليصلح به أعمال العباد، فيصلح عباده... فيعتدل بذلك حال الإنسانية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا والآخرة.
را: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج٣، ص٩٨.

الاستقامة وعن كونه منتفعاً به، سواء في النفس، أو البدن، أو الأشياء الخارجية، كما أفاد الراغب في مفرداته[١]، الزمخشري في كشّافه[٢]، فإنّ هذا الفساد لا يعدو كونه خروجاً عن حدّ الاعتدال والاستقامة في أي شأن من شؤون الحياة، سواء الاجتماعية، أم السياسية، أم الدينية، وفي كل المجالات التي أوكل إلى الانسان أمر القيام بها لتكون على وجه الصلاح، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[٣]، ما يعني أن هذا الفساد فيما يعنيه على مستوى الاجتماع الانساني، كما أشرنا آنفاً، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى قيمومة الإنسان على نفسه في شؤون الحياة، وتخلّفه عن الأخذ بالأسباب الكفيلة بتأمين الاستقرار والأمن له، باعتبار أن الفساد في الأرض، لا يعني التراب والصخور وغير ذلك مما تحتويه الأرض، وإنّما يعني الانسان وما يحقق له الأمن والاستقرار، فهو إن كان أمناً كانت الأرض أمينة، وإن كان فاسداً، كانت الأرض فاسدة، وقد شرّعت لهذا الإنسان الأحكام التي تضمن له صلاح نفسه فيما لو اتّبعها، وهذا ما دفع بالعلماء إلى التمييز بين متعلق هذا الفساد في الأرض كما يفيد لسان الآيات والروايات، وبين أن يكون متعلقاً بفساد الرأي، أو العقيدة، وغير ذلك مما له علاقة بالفكر والرأي والاختلاف فيه، وقد سبق القول في أن الفساد في الرأي والعقيدة ليس مما يمكن اعتباره إفساداً في الأرض، لأن الاختلاف في الرأي والنظر والمذهب، هو مما تقتضيه سنن الخلق والاجتماع فيما يكون عليه الناس من تنوع في الآراء، واختلاف في النظر، ولو لم يكن لهذا الاختلاف معناه وأثره الإيجابي لما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾[٥]،

(١) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٣٩٣.

(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج١، ص٩٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1]. إنّ هذه الآيات ناظرة إلى أن حقيقة التكامل البشري تقتضي أن يكون الناس على حوار واختلاف وتعارف لتحقيق الكمال الاجتماعي والإنساني...

وانطلاقاً من هذا المعنى، نرى أن الفساد ومعناه يتراوح بين أن يكون فساداً في النفس، أو البدن، أو في أشياء خارجة عنه، وهو إنّما يكون فساداً بحسب متعلقه وتحققه على النحو الذي يجعله ظاهراً في الواقع، أو متحققاً في النفس، وهو غالباً ما يكون متحققاً في الواقع الموضوعي بما يأتي به الإنسان من أعمال تخرجه عن كونه صالحاً، وتجعله مفسداً في الأرض، ولهذا رأينا كيف أن العلاّمة الهاشمي لم يطلق الفساد في الأرض على حالة الشرك أو الاعتقاد الباطل، وإنّما هو يُطلق غالباً، كما يرى، على موارد التعدّي والتجاوز على الأنفس والأموال وما إليها[2].

وكما قلنا: إنّ دراسة موضوع الفساد والترف تبقى بحاجة إلى مزيد من الدرس والتحقيق من خلال رؤية موضوعية توحيدية حسب تعبير الصدر، بحيث يميّز بينه وبين الترف وما يعنيه من فساد في الاعتقاد والأخلاق والسلوك، فضلاً عما يعنيه من فساد سياسي واجتماعي وحضاري... ولعلّنا لا نخطئ القول: إنّ أنواع الفساد، هي في الحقيقة، مستوعبة ومتضمّنة في أنواع الترف، وقد اعتاد الباحثون على استعمال مفردة الفساد السياسي، أو الاجتماعي، دون وعي منهم لما يعنيه مصطلح الترف والمترفون، خلافاً لما تقتضيه مدلولات الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، إذ ليس كل فساد سياسي، أو اجتماعي هو تعبير عن حالة الاعتقاد التي ينتمي إليها الإنسان، فقد يكون المقصود هو التعبير عن حالة الفساد الواقعي بما يعنيه من أمن واستقرار، وقد يكون المقصود عند الباحثين طبعاً، التعبير عن فساد الرأي والعقيدة، وهذا ما تستبطنه معاني الفساد السياسي، أو الاجتماعي، ما يؤكّد

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) الهاشمي، محمود، حكم المفسد في الأرض، م. س، ص١١٠ - ١١١.

ضرورة الوعي بالمصطلح حتى يكون ممكناً الإجابة على أسئلة الواقع وإشكالياته، سواء لجهة استكشاف الواقع وما هو عليه، أو لجهة الوعي بحقيقة المصطلح، أو المفهوم الذي يراد التعبير عنه من قبل الباحثين.

ومن هنا، نرى أهميّة البحث في أنواع الترف والمترفين، لكون منظومة الحياة عندهم لا تقوم على أساس رؤية سياسية أو اجتماعية، وإنّما هي مؤسسة على هوى النفس والتعصب وما نصبه إبليس من حبائل في دار الغرور، كما أفاد الحلّي[1]، بدليل أن المترفين قديماً وحديثاً كفروا بمنظومة القيم الإنسانية، وقدّسوا زينة الحياة بما تعنيه من مال وولد وسلطة، وبرّروا الموت والحياة من خلال ذلك، وكان لسان حالهم دائماً: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾. فهم، أي المترفون، يرون في المال والثروة مقياساً لكل شيء، تماماً كما كان أهل السفسطة يرون الإحساس مقياساً لكل شيء وهذا أدّى فيما أدّى إليه إلى أن يكون الدين عند المترفين، وكذلك الشرائع، تعبيراً عن المال والثروة، وسبيلاً إليها دونما اعتبار لآية دعوة من خارج مكوّنات هذا الترف الدنيوي...!؟

وكيف كان، فإنّ ما نرى من أهمية للبحث عنه، هو هذا النوع من الترف الذي عكسته آيات القرآن بشكل جليّ، وأظهرت معانيه على النحو الذي يؤكّد أنه ليس ترفاً أنتجته الصدفة، وإنّما هو ترف له تعبيره في منظومة الخلق الآدمي، حيث نرى الملائكة يشكون من هذا الترف، بل نجد إبليس هو أول مَن عبّر عنه حين استكبر على آدم، ورفض الأمر الإلهي بالسجود، واختار أن يكون ملعوناً في الأرض والسماء، وبحق نقول: ليس الترف، بكل أنواعه المادية والدينية والسياسية والحضارية، سوى

(١) يقول الحلّي: من لدن آدم عليه السلام حتى رسول الله صلى الله عليه وآله كان الأغنياء المترفون والأشراف المستكبرون هم الذين يتصدون للدعوى الإلهية ضد الفقراء الأولياء، وهذا ما عيّروا به الرسل: «أنؤمن لك واتبعك الأرذلون».

انظر: الحلّي، أحمد بن فهد (ت ٨٤١هـ)، عدّة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق أحمد القمي، مكتبة الوجداني، قم، ص١١١.

تعبير عمّا اتخذه الشيطان لنفسه من وسائل وأساليب لإغواء الإنسان وإضلاله، ليكون من جنود إبليس فيما يصدر عنه من أفعال، وفيما ينطق به من أقوال. وما مقولة الترف والمترفين، كما أظهرها القرآن، إلاّ تعبيراً عن الطاعة لهذا المخلوق الشرّير، الذي أبى إلا أن يكون مفسداً للأرض، وفاسقاً عن أمر ربه.

لقد اختار المترفون أن يكونوا تعبيراً عن هذا الكفر والفسوق بكل ما يعنيه من إفساد في الأرض، وهذا ما عقدنا العزم على تبيانه تحت عنوان أنواع الترف، لإظهار حقيقة ما يعنيه الترف من إفساد، سواء في الجانب المادي الدنيوي، أم في الجانب الديني السياسي، على اعتبار أن المترفين هم أهل السياسة أيضاً، وكانت لهم محاوراتهم مع الأنبياء، تماماً كما كان لإبليس حواره مع ربّه. فالمترف ليس وهماً، وإنما هو حقيقة ومشروع هادف، وقد وضعه القرآن في مقابل الأنبياء لكونه يشكل استجماعاً للشرّ، ويعبّر عن مشروعه في مقابل إرادة الله تعالى، وهذا ما رأينا أنه يشكّل قمّة الإفساد في المجتمع الإنساني، سواء في العقيدة، أم في السلوك، فإذا ما توفرنا على سرّ هذا الترف، فإنّنا نكون من خلال هذا البحث قد استوفينا كامل الشروط التي لا بدّ من توفّرها لجعل هذا المبحث قائماً على كل التفاصيل المشار إليها في مدلول الآيات القرآنية المتضمّنة لحقيقة ما يردده المفسدون في الأرض، على اعتبار أن الفساد بكل وجوهه ومتعلقاته هو مترشّح ومتسرّب من منظومة الترف الشيطاني، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[2].

أ الترف المادي/الدنيوي:

إنّ القرآن الكريم، فيما جاء به من أحكام، وشرّعه للإنسان، إنّما هدف من

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

خلال ذلك إلى بناء حياة إنسانية متوازنة، وهو، أي القرآن، لا يتحدث عن المادة والزينة بطريقة سلبيّة كما يحلو للبعض أن يقول، وإنما نراه يؤكّد على هذه الحياة وزينتها ونعمها على النحو الذي يدفع بالإنسان إلى أن يكون حاكماً لهذه الزينة، ومستفيداً منها في طريقه إلى الله تعالى. ولهذا، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. إذ لم يقل أكثر عملاً وإنّما أحسن عملاً بما يُفيد أن حسن العمل وقيمته وأثره في الخير والإحسان، هو المعتبر والمنشود فيما جعله الله تعالى على هذه الأرض من نعم مَنَّ بها على الإنسان لتكون عوناً له، وسبباً لتجاوز صعاب الحياة للفوز بالرضوان، وكما رأينا فيما سبق من بحوث أن القرآن لم يتحدث عن الترف إلا بالذم في بضع آيات قصد الله تعالى بها المترفون، واضعاً إيّاهم في مصاف الكفر والجحود والطغيان، لكونهم اختاروا أن تكون النعم الإلهية التي مَنَّ الله تعالى بها عليهم سبيلاً للمعصية وطريقاً إلى الإضلال، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[2]. وكما جاء في مجمع البيان للطبرسي، أن الله أعطاهم ذلك للإنعام عليهم مع تعرّيه من وجوه الاستفساد، وكانت عاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك، ولا يجوز أن يكون اللام في «**ليضلّوا**» لام الغرض، لأنا قد علمنا بالأدلّة الواضحة أن الله تعالى لا يبعث الرسول ليأمر الناس بالضلال، ولا يريد منهم الضلال وكذلك لا يأتيهم المال ليضلّوا[3]، ولهذا نجد أنّ دعاء موسى يأتي في سياق الشكوى مما آلت إليه النعم في أيدي الفراعنة، ويدعو إلى طمس

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٣) انظر: الطبرسي، تفسير مجمع البيان، (ت ٥٤٨هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج٥، ص٢٢٠.

أموالهم بحيث لا ينتفع بها كما قال عامّة أهل التفسير، فالزينة.. كما يبيّن القرآن الكريم، ليست عائقاً في طريق الهداية، وهي إنّما جعلت للذين آمنوا في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إنّها زينة ما كانت الدنيا لتستقرّ من دونها، وهي وسيلة للاستقرار، وسبيل إلى القيام في طريق الحق، فما بال الفراعنة والمترفين يتخذون منها وسيلة للإضلال، ويقومون بها على أنها منتهى الآمال والأحلام؟ رغم أنّ أولياء الله تعالى لا يفوتهم أبداً أن يكون لهم من هذه الزينة التي أخرجها الله ما يجعلهم يقولون برضا الله تعالى. ولعلّ خير من عبّر عن هذه الحقيقة هو الإمام علي فيما ذكره من رابطة حقيقية بين أهل الترف وإبليس وما يكون لأهل الدنيا وأهل الآخرة فيما امتحنوا به في هذه الدنيا، يقول الإمام علي: «**ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلاّ عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليطُ بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصّبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة. أما إبليس فتعصّب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني، وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**»[2].

وقال عليه السلام: «**واعلموا عباد الله إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وآكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد**

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، المعجم المفهرس لألفاظ النهج، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٦، الخطبة: ١٩٢.

المُبلِّغ، والمتجر الرَّابح، أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذة...»[1].

نلاحظ كيف أن الإمام يربط بين إبليس وعصبيته على آدم، وتعصّب مترفة الأمم لآثار مواقع النعم، وقولهم: نحن أكثر أموالاً وأولاداً... ومن هنا يتبدّى لنا سرّ التقابل بين النبوّة والترف في آيات الله تعالى، حيث نرى أن إبليس يتطوّر في مشروعه من خلال المترفين في الحياة الدنيا، وتكون النتيجة الفساد بكل وجوهه وأنواعه في المجتمع الإنساني، وليس من عجيب أبداً أن يتحدّث إبليس عن الإغواء والتزيين لبني آدم ليكونوا تعبيراً عنه فيما يزعمونه من زينة في المال والولد، حيث قال تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[2].

وقد شرح الإمام هذا الكلام، قائلاً: «**قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظنّ مصيب، صدّقهُ به أبناء الحميّة، وإخوان العصبيّة، وفرسان الكِبرِ والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السرّ الخفي، إلى الأمر الجليّ، استفحل سلطانه عليكم وَدَلَف بجنوده نحوكم، فأقحمُوكم ولجات الذلّ، وأحلّوهم وَرَطَات القتل...**»[3]، يقول العلاّمة مغنية في شرح كلام الإمام عليه السلام: إن إبليس قال: لأغوينّ بني آدم، ولم يكن عند قوله هذا آدمي على وجه الأرض، وإنّما قال ذلك ظنّاً ورجماً بالغيب... ومع هذا صدق ظنّه، لأنّ الناس كلهم من حزبه إلا قليلاً»[4].

إذن، الترف المادي، فيما يعتمد عليه من زينة وتزيين، هو الذي يترشّح عنه، ويتسرّبُ منه أن يكون الشيطان آخذاً بزمام المبادرة لقيادة المجتمع الإنساني، لأنّ

(١) م. ع، الكتاب: ٢٧.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

(٣) الإمام علي عليه السلام، م. ع، الخطبة: ١٩٢.

(٤) معنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة، دار العلم للملايين، بيروت، ص٣، ١٩٧٩م، ج٣، ص١١٣.

أكثر الناس من حزبه في كل زمان ومكان، وقد حذّر الله تعالى عباده من أن يستجيبوا لندائه، أو أن يسمعوا لهاتفه، وكانت النتيجة التعصّب لآثار مواقع النعم، والاستجابة لندائه، حتى أخذ الشيطان منهم مأخذه، وبلغ فيهم مأمله، كما بيّن الإمام علي في كلامه إلى أحد المترفين، ذامّاً إيّاه، بقوله: «**خذ أهبة الحساب، وشمّر لما قد نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، وألاّ تفعلُ أُعلمك ما أغفلت من نفسك، فإنّك مترفٌ... ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعيّة وولاة أمر الأمة؟**»[1].

لقد تبيّن لنا، في معرض الحديث عن الترف والفساد، أن الترف المادي الدنيوي، هو ليس مجرّد تعبير عن حالة مادية يعيشها الإنسان في هذه الحياة، وإنّما هو مشروع شيطاني هادف إلى إقصاء الأنبياء والأولياء عن قيادة الأمة[2]، تعصباً للمال والولد، وانخداعاً بالزينة والفاكهات من الدنيا، وظناً من المترفين، سواء أكانوا من أصحاب الثروة، أم من الأشراف المستكبرين. أنّ الدنيا وزينتها، إنّما هي تعبير عن تميّز خاص للمترفين لا يعقبه عذاب ولا فناء، تماماً كما قال أولئك الذين لم يعتبروا بما آل إليه حال آبائهم وأجدادهم فقالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3]، وهذا إنّما كان منهم بعد أن بدّلهم الله مكان السيئة بالحسنة حتى عفوا وكثروا.!؟

وهكذا هو حال المترفين، إذ يرون كل نعمة عليهم سبباً للمزيد في الطغيان والاستكبار، وقد بيّنا آنفاً أن الترف بكل أنواعه، المادية والمعنوية، إذا صحّ التعبير، قد ذمّه الله تعالى لما ينطوي عليه من مساوئ في القول والفعل، فضلاً عمّا يتقوّم به هذا الترف من تعصّب لم يسبق إليه إلا إبليس فيما عبّر عنه من معصية واستكبار

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الكتاب: ١٠.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام لعبد الله بن جندب: «يا عبد الله لقد نصب إبليس حبائله في دار الغرور فما يقصد فيها إلا الأولياء ولقد حلت الدنيا بأعينهم حتى ما يريدون بها بدلاً، ثم قال: آه، آه، على قلوب حُشيت نوراً، وإنّما كانت الدنيا عندهم بمنزلة الشجاع الأرقم،أنسوا بالله واستوحشوا مما به يأنس المترفون، أولئك أولياء الله حقاً، وبهم تكشف كل فتنة، وتدفع كل بليّة، نهج البلاغة، الكتاب: ١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

وهوى في مقابل الأمر الإلهي، وهذا ما التزم به المترفون دائماً، منذ آدم إلى عصرنا الحاضر، وهذا ما يؤكّد لنا ضرورة أن لا يلتبس الأمر على الباحثين في الشؤون الإسلامية، كيما لا يخلطوا بين أنواع الفساد في الأرض وبين أنواع الترف، وخاصة حينما يتعلّق الأمر بالدفاع عن مشروع النبوة في الواقع الإنساني. ولا شكّ في أن المسوّغ لهذا الاعتبار، هو أنّ الترف ذو منشأ نفسي، وعنه تترشّح كل أنواع الفساد في المجتمع الإنساني، سواء في مجال العقيدة، أم في مجال العمل والتطبيق، وإذا كان هناك من ذهب إلى القول بأنّ الترف هو من توابع الثروة كابن خلدون، فيما اعتمده من منهج تاريخي، وفيما رآه في نظريته عن الاجتماع الإنساني والعمران البشري[1]، فإنّ ذلك إنّما يصح فيما لو كان الحديث عن تحققات الفساد في المجتمع، أما الترف ومتعلقاته، فقد بيّنت الآيات القرآنية، أن الترف هو من توابع وترسّمات التعصّب لإبليس والشيطان، الذي حذّر القرآن من اتّباعه، ودعا إلى اتخاذه عدوّاً حتى لا يُجلِب عليهم بخيله ورجله. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الزينة التي أتاه الله للفراعنة، وكل ما يمكن أن ينشأ عن الاستغراق فيها ليس الترف نتيجة لها، وإلاّ لماذا نرى الإمام عليه السلام يربط بين تعصّب إبليس لأصله، وتعصّب مترفة الأمم لآثار مواقع النعيم، لو لم يكن لهذا الربط بعده النفسي لجهة ما يكون عليه المترف في نفسه من اتباع للهوى، وتقليد للشيطان، قبل أن يكون مقلّداً لآبائه، وقد عرفنا معنى أن يكون المترف مقلداً لآبائه فيما عرضنا له من تقابل بين موقع النبوّة وموقع المترفين، حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. والحقّ يُقال: إنّ هؤلاء، كانوا متبعين ومقلدين لإبليس قبل أن يكونوا مقلدين لآبائهم، لأن منطقهم هو منطق إبليس، وفعلهم فعل إبليس، فلا معنى لأن نتحدّث عن الترف المادي في سياق ما نراه من زينة وتزيين، ونعَم اختبر الله تعالى بها عباده، ولعلّ ما ذهب إليه الشهرستاني هو خير معبّر وكاشف

(١) ابن خلدون، المقدمة، م. س، ص١٧٢ – ١٧٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

عمّا يعنيه الترف منذ آدم وحتى عصر رسول الله، حيث رأى: «**أنّ مَن جادل نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وإبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى وعيسى ومحمّداً صلوات الله عليهم أجمعين، كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في إظهار شبهاته، وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم وجحد أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم، إذ لا فرق بين قولهم:** ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[1]، **وبين قوله:** ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[2] **وعن هذا صار مفصل الخلاف، وموضع الافتراق ما هو في قوله تعالى:** ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، **فبيّن تعالى أن المانع من الإيمان هو هذا الهوى**[4]**! فأين، إذاً، تظهر لنا حقيقة مقالة ابن خلدون، وسائر علماء الاجتماع، الذين يربطون بين الترف والثروة، طالما أن القرآن يعتبر الترف والمترفون صدى لمقالة إبليس والشيطان في كل زمان ومكان!؟**

نعم، يمكن أن يكون للمال والولد وتوابعها تأثير على حياة الترف والمترفين من خلال استغلالهما في مشروع التصدي لما جاء به الأنبياء عن ربهم، إلاّ أن ذلك ليس المسوّغ الوحيد والأساسي لظهور الترف المادي بكل ما نشأ عنه من فساد في المجتمع الإنساني... بيد أن هذا الذي نراه من حقيقة للترف في ضوء الرؤية التوحيدية، ومن خلال تفكيك موضوع الترف، لا يجعل الترف المادي الدنيوي، غريباً عمّا زُينت به هذه الأرض، لكنه يبقى إطاراً ثانوياً لتفسير مقالة المترفين، وقد تبيّن لنا في ما أوضحه الإمام علي عليه السلام عمّا ناله أولياء الله تعالى من نعم الدنيا رغم اختلافهم في المقالة والرؤية عن المترفين، حيث كان لهم الفوز في الدنيا والآخرة، وهذا إنّما كان لهم لا بسبب أنهم زهدوا في الدنيا، وتركوا زينتها،

(١) سورة التغابن، الآية: ٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٤) انظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، دار صعب، بيروت، ج١، ١٩٨٦م، ص١٩.

وإنما لكونهم عقلوا عن الله تعالى، ولم يسمعوا لهتاف الشيطان، واختاروا أن تكون الزينة والثروة اختباراً لهم في طريق الكدح إلى الله تعالى.

خلاصة القول: إنّ ما بيّنه القرآن وشرحه الإمام علي عليه السلام، وقدمه علماء الإسلام الأتقياء في معنى الترف، يخرج الزينة عن كونها سبباً وحيداً لتعصّب المترفين، ويكشف أن دعاء موسى عليه السلام على فرعون أن يطمس أمواله، إنما يهدف إلى تعريف فرعون وغيره من الفراعنة أن الزينة إنّما تحوّلت عن كونها من حيث الخلقة عارية عن وجوه الاستفساد، وفد فسدت حينما تلبّس بها فرعون في نفسه، فكان المرض في قلبه، فزاده الله مرضاً، لأن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فإذا كانت الزينة قد استقرت عند المترفين بما لجأوا إليه من وسائل وأساليب للاحتكار وجمع الثروات، فذلك لا يشكل دليلاً عن أن الترف هو من توابع الثروة، وإلا كيف لنا أن نفسّر حقيقة الترف عند التابعين، الذين بلغ بهم الترف حدّ أن يقبلوا الاستخفاف، وأن يستجيبوا لنداء فرعون ضحّى لمقابلة موسى مع السحرة، بعد أن تمّ التوافق على أن يكون اللقاء يوم الزينة، وأن يُحشر الناس ضحىً، فهل كان هذا الترف متولداً في أنفسهم من ثروة فرعون وطغيانه، أم كان الترف نتيجة لاستجابة قلوبهم وميل أنفسهم له[1].

(١) إنّ مما يعزّز ما نذهب إليه فيما نراه عن الأثر النفسي للترف، وأن الثروة ما هي إلا وجه من وجوه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، انظر إلى قوله تعالى: ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، فهو رغم ما هو عليه من اعتبار مالي ومعنوي، تراه يؤكّد على نفسه في محور الإضلال والفتنة، باعتبار أن النفس هي طريق الإنسان إلى ربّه، وكما يقول الباحث سعيد أيوب: لقد أقام الله تعالى على الإنسان الحجة فيها، فألهمه طريق الفجور وطريق التقوى، فمن انغمس في الشهوات غشي عمله على قوة النفس الهائلة، فيفتح العمل على طريق الفجور على اتساعه، أما من التزم في عمله بما أمر الله به وما نهى الله عنه، تكون نفسه حظ سعيد ينتهي بالإنسان إلى ثواب الله تعالى، وهنا المقصد، وجوهر المطلب، أن الإنسان لا يطأ موطأً في سيره إلاّ بأعمال قلبية هي الاعتقادات ونحوها.. والسامريّ سوّلت له نفسه، فما أغنت عنه هجرته، ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.
را: سعيد أيوب، معالم الفتن، دار الكرام، ط١، ١٩٩٣، ج١، ص٦٤.

ومن هنا، صحّ قول العلاّمة مغنية بأن الترف هو ناشئ من المجتمع الذي اختار بإرادته أن يكون المترفون تعبيراً عن دينهم وكل شؤون حياتهم، وخير ما يعبّر عن هذه المشهديّة في الترف المادي، هو ما جاء في سورة طه، والشعراء، والأعراف، إذ يظهر من منحى القصص القرآنية أن الترف والفساد كان ولا يزال مرهوناً بما يكون عليه الناس من أمراض قلبية ونفسية، بعد أن لم يستجب هؤلاء لما جاء به أصحاب الشرائع والتكاليف، كما بيّن الشهرستاني في الملل والنحل.

وهكذا، فإنّ معنى أن يكون المجتمع مترفاً مادياً، ومستغرقاً في المتاع والزينة والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة، معناه أن المجتمع لم يعقل عن الله تعالى بأنّ هدى الله هو الهدى، واختار بإرادته أن يكن له منطق ورأي واجتهاد إبليس فيما عبّر عنه من كفر وعصيان وجحود، وتأتي الزينة لتزيد الطين بلّة في تظهير هذا الترف كبرياءً واستكباراً وعلوّاً في الأرض، حيث قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وكما نلاحظ أن الآية تقدم فيها العلوّ على الفساد، بما يفيد بأنه كلما ازداد العلوّ في الأرض، كلما ازداد الفساد في المجتمع، لأنّ العلوّ والاستكبار هو حالة نفسية قبل أن يكون حالة واقعية، أو موضوعية، ما يعني أن الترف والمترفين في أجواء الطغيان المادي، هو أنهم خضعوا وعبّروا عن مرضهم القلبي، وفسادهم النفسي، الذي أعقبه تنكّراً وجحوداً بالمبدأ والمعاد، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2]. وهذا هو دليل على أن القلوب المنكرة، هي السبب في سوء استخدام الثروة والزينة، كما أنها السبب في السماع لنداء إبليس بأن يتحوّلوا عن طاعة الله تعالى، ليكونوا في طاعة الطاغوت، وقد سبق أن بيّنا في مبحث سابق من الفصل الأول، أنّ الترف ليس مخصوصاً بفئة معيّنة من الناس، بل هو متشكّل في ضمير الرؤية والمشروع الإبليسي الشيطاني الذي أقسم بأن

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٢.

يُزيّن ويُغوي الناس أجمعين، وقد تمّ هذا الأمر لإبليس إلاّ قليلاً من الناس ممن آمنوا ولم يجعلوا لإبليس سبيلاً عليهم رغم مجاورة هذه الدنيا بكل زينتها وزخرفها.

إنّ الترف المادي الدنيوي، هو ذلك الترف الذي يحوّل الإنسان عن عبودية الله تعالى، ليكون تعبيراً مادياً، يأخذ شكل البداوة طوراً، وشكل الحضارة طوراً آخر، وهو في جميع الأحوال يعبّر عن مشروع إبليس المقابل لمشروع الله تعالى، الذي حملته النبوّة ودعت إليه في كل زمان ومكان.

ب: الترف الديني السياسي:

عرفنا أن الزينة التي أخرجها الله تعالى لعباده ليست شرّاً بذاتها على الإنسان، بل هي اختبار وامتحان له، كما قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..﴾، وكما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

وإذا كان الله تعالى قد حبّب للإنسان الإيمان وزينة في قلبه، ورغبه بالزهد في الدنيا، فذلك إنّما كان من الله تعالى تسديداً للإنسان وتوفيقاً له كيلا تستغرقه حبائل الغرور، ومصائد الشرور، بحيث تدفع به إلى التعصّب لآثار مواقع النعم، فيقول، أنا أكثر منك مالاً وولداً، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3] لقد أرشد الله تعالى الإنسان إلى سبل سعادته، وهداه إلى مسالك العبور في دنيا الغرور، فقال له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[4]، وهذا كله إنّما كان إرشاداً للإنسان ليكون واعياً لدوره

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٣٤.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٧.

ومدركاً لحقيقة استخلافه في الأرض، ورغم هذا كلّه، فإنّ الكثيرين ممن لم يعقلوا عن الله تعالى معنى أن يعيشوا النعم، قد أخذوا بالزهد سبيلاً إلى رفض الزينة، تماماً كما أخذ الكثيرون بالترف طمعاً، إلاّ القليل ممن عقل عن الله تعالى، فأخذ بما أمره الله به، ونهاه عنه، رغبة بما عند الله تعالى، بعد أن حَلَتِ الآخرة في أعينهم فلم يختاروا بها بدلاً، ولا ابتغوا عنها حولاً، لأنها دار أعدّت للمتقين، وقد يكون كافياً ما تقدّم للتدليل على أن المطلوب من الإنسان في هذه الدنيا أن يستعمل متاع الدنيا وزينتها على طبق القوانين التي جاء بها الأنبياء والرسل كما أفاد البحراني[1].

كما تقدّم الكلام أيضاً في معنى أن يكون منشأ الترف المادي والاستغراق فيه إلى حدّ الغرور والعلوّ، هو النفس الأمّارة بالسوء وما أسس له إبليس فيما زعمه لنفسه من تمييز وكبرياء، هذا اللعين الذي صدق ظنّه بأن يكون أكثر الناس تبعاً له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]، وهذا يعني فيما يعنيه، أن الشيطان يضل من يتولاّه، لأنه جُبل عليه، كما جاء في تفسير الصافي[3]، فأصبح وإياه شيئاً واحداً في القول والفعل. وهنا نسأل، فما يكون معنى الزينة والمال والثروة فيما لو كان الإنسان مجبولاً على طاعة الشيطان، ومأخوذاً بزمامه، غير أن تكون الزينة أسلوباً ووسيلة لإحكام سطوته وتمتين احتناكه للإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[4].

---

(١) يقول ابن ميثم البحراني في شرح نهج البلاغة: إن ترك الدنيا بالكليّة ليس هو مطلوب الشارع من الزهد فيها والتخلي عنها، لأنّ الشارع يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح لبقاء النوع الإنساني، وإن ترك الدنيا وإهمالها بالكليّة يعدم ذلك النظام وينافيه، بل الذي يأمر به الشارع القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين التي جاء بها الرسل والوقوف فيها عند الحدود المضروبة في شرائعهم دون تعدّيها كما قال الإمام علي عليه السلام لأحد أصحابه: العلاء بن زياد الحارثي في شأن سعة داره، وسؤاله له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار الدنيا؟!».
البحراني، ابن ميثم، شرح نهج البلاغة، دار العالم الإسلامي، بيروت، ج٤، ص١٨.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣ ٤.

(٣) انظر: الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، مكتبة الصدر، ط١، طهران، ج٢، ١٤٢٠هـ، ص٧٩٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

إذن، الترف المادي الدنيوي، ليس تعبيراً خارجياً، وإنما هو حالة قلبية نفسية يتمكن الشيطان من خلالها نصب شراكه، وإدلاء حبائله لأسر الإنسان وحرفه عمّا أعدّ له من نعيم الخلد في الدنيا والآخرة.

إنّ ما تقدّم هو بمثابة التأسيس لأطروحة جديدة نودّ أن نعرض لها في سياق هذا المبحث، حيث نرى أن الترف الديني السياسي لم يقتصر أمره وتعبيره على مَن أخذوا بشرع الله تعالى واحتكموا إليه، باعتبار أنه سبق للفراعنة والطواغيت، وخاصة في تاريخنا الإسلامي، أن رفعوا شعار الدين والإسلام لتسويغ الترف بكل متعلقاته، أسوة بالفراعنة والمترفين في كل زمان، وكما بيّن الشهرستاني أن الشبهات التي وقعت في آخر الزمان هي بعينها تلك الشبهات التي وقعت في أول الزمان، «**كذلك يمكن أن نقرّر في زمان كل نبي ودور صاحب كل ملّة وشريعة: أن شبهات أمته في آخر زمانه؛ ناشئة من شبهات خصماء أول زمانه من الكفار والملحدين وأكثرها من المنافقين، وإن خفي علينا ذلك في الأمم السالفة لتمادي الزمان، فلم يخف في هذه الأمة أن شبهاتها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي**ﷺ، **إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى، وسألوا عمّا منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل فيما لا يجوز الجدال فيه..**»[1].

إنه كلام حاكم للشهرستاني فيما يشير إليه ويؤكّد عليه لجهة أن الأمم والشعوب كانت ولا تزال تتداول الترف وزينة الحياة بما لا يرضي الله تعالى، وقد أمرنا الله تعالى في كتابه العزيز أن نتدبّر حال الأمم السالفة لنتعرّف إلى ما كان عليه الناس، وما آلوا إليه في صيرورة تحولاتهم الدينية والإنسانية، حيث قال تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ**..﴾[2]. وقال علي عليه السلام: «**استدلوا على**

(١) را: الشهرستاني، الملل والنحل، م. س، ج١، ص١٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٢.

ما لم يكن بما قد كان، فإن الأمور أشباه»[1]. إنّ ما صنعه المترفون في الدين يتجاوز كثيراً ما صنعه المترفون الذين فتنوا بزينة الحياة الدنيا، ونطقوا جهاراً بلسان إبليس في مواجهة دعوات الأنبياء، متعصبين لآبائهم وأموالهم وتقليدهم، جاعلين من ذلك ديناً لهم، وقد حاوروا الأنبياء على أساس أنهم أصحاب دين في مقابل دين الأنبياء، وأنهم إنما كان لهم الامتياز والكبرياء في كونهم أصحاب الثروة دون غيرهم من الفقراء! فإذا كانوا قد ميّزوا بها، فكيف يعذبون بها أو عليها!؟

هناك أسئلة كثيرة عرض له القرآن على لسان المترفين، ويكفي أن نؤكّد هنا على حقيقة أشار إليها الشهرستاني، وهي أن أهل النفاق ممن ادّعوا الإيمان وأظهروه، واستبطنوا الكفر وأسرّوه، هم كانوا أهم تعبير من تعابير الترف، وأبين دليل عليه، لكونهم أخذوا بأسباب الثروة، وآمنوا بترف الفراعنة بعد أن استفادوا منه غاية الاستفادة، وأكثر ما يتجلّى هذا الأمر في زمن رسول الله ﷺ، حيث كان لهم الدور الأبرز في مواجهة الدعوة النبويّة، وطرح الشبهات تقليداً للكفار والملحدين والمترفين، وكم يكون الأمر صعباً ومؤسفاً فيما لو علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنافقين تابعوا خطى أبي جهل، وأبي سفيان، وأبي لهب، بما كانوا يمثلونه من ترف وكفر ظاهر، فاقتدوا بهم حرصاً على زينة الدنيا، والتزاماً منهم بما قطعوه من عهد مع الشيطان في تهديم الدين الجديد[2]! والحق يُقال: إنّ هؤلاء هم الذين حوّلوا الترف من كونه ظاهرة، بل حقيقة فرعونية شيطانية ظاهرة ليكون ظاهرة تحمل اسم الإسلام وتحكم باسم

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ١٢.

(٢) لقد وفّق الباحث «أيوب» أيّما توفيق فيما أشار إليه من أن إبليس هو مؤسس فقه التحقير، وهذا الفقه، بما ينطوي عليه من حسد وتكبّر وتفاخر، مارسه ضد الأنبياء من آدم عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، وإذا كان مؤسس هذا الفقه، رفض أمر السجود لآدم في بداية الخلق، فإنه على امتداد المسيرة البشرية وضع عقبات أمام أمر الله تعالى الذي حمله الأنبياء والأوصياء للسجود لله تعالى. ونحن بدورنا نرى أن المنافقين والطلقاء وأبناءهم قد تابعوا الخطى، رافعين راية التحقير للبشر بعد رحيل النبي ﷺ لإيقاف مسيرة الأولياء والصالحين...

انظر: معالم الفتن، م. س، ج١، ص٢٦.

الإسلام، وإلاّ فما يكون معنى الشهرستاني فيما لو أعرضنا عن هذه الحقيقة؟ فلم يعد الترف ترفاً دنيوياً مادياً له آثاره الدنيوية في مجالات الحياة الإنسانية، وإنّما تحول ليكون ظاهرة دينية، وترف ديني يقوم مقام الفرعون والطاغوت، بل مقام إبليس تحت عنوان الدين والإسلام، تماماً كما قام مقامه في زمن الأنبياء السابقين...

وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على مدى ما يمكن استكشافه من القرآن فيما عرض له عن ظاهرة النفاق الملازمة دائماً للترف والمترفين، ولكن بوجه آخر، وأطروحة أخرى. ألا تلاحظ كيف أن فرعون حينما ذهب إليه موسى ليقول له قولاً ليّناً، كيف أنه خرج عن طوره، واستشار زبانيته، فقالوا له: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ..﴾[1]. فإذا كان فرعون مترفاً، وظاهر الترف والكفر والعصيان، فما باله يسمع للنصيحة، في حين نجد الحاكم باسم الإسلام يقتل النجباء ويذبح أطفال الأولياء باسم الدين والإسلام[2]؟ إنها حقيقة عجيبة وناصعة، نرمز من خلالها إلى ما أسميناه بالترف

---

(١) نعم، الفراعنة قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وأما أهل الترف في تاريخنا الإسلامي، فقتلوا أهل البيت عليهم السلام وعاثوا في الأرض فساداً باسم الدين، ولعل أفضل ما قرأت في المقارنة بين الفراعنة، وما كانوا عليه من فقه، وبين الولاة الذين تعاقبوا على حكم المسلمين، ما نقل عن معتمر بن سليمان التيمي، قال: لما جاء بالشَّجَّاء، وكانت امرأة من الخوارج، إلى زياد بن أبيه، قال لها: ما تقولين في أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه؟ قالت: ماذا أقول في رجل أنت خطيئة من خطاياه! فقال بعض جلسائه: أيها الأمير، أحرقها بالنار، وقال بعضهم: اقطع يديها ورجليها، وقال بعضهم: اسمل عينيها، فضحكت حتى استلقت، وقالت: عليكم لعنة الله! فقال لها زياد: مِمَّ تضحكين؟ قالت: كان جلساء فرعون خيراً من هؤلاء، قال لها: ولِمَ؟ قالت: استشارهم في النبي موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وهؤلاء يقولون: اقطع يديها ورجليها واقتلها، فضحك منها وخلّى سبيلها».

انظر: القالي، أبو علي، الأمالي والنوادر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (لا ت)، ص١٧٤.

(٢) يروي السيوطي عن الطيالسي في مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الأئمة من قريش ما حكموا فَعَدلوا، ووعدوا فَوَفَوا، واسترحموا فرحموا» أخرجه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والطبراني. وهنا نسأل: أين كان العدل؟ وأين كان الوفاء؟ وأين كانت الرحمة؟ وقد جرى في كربلاء ما جرى! ألم يحدث في التاريخ أن استشار الخليفة لإخماد الثورة، فقالوا له: جمّرهم في المغازي، واقطع الأعطيات، إلى غير ذلك مما يندى له جبين الإنسانية.

را: السيوطي، الحافظ جلال الدين، تاريخ الخلفاء، منشورات الرضى، قم، ١٤١١هـ ط١، ص٩. ورا: ابن قتيبة، الدينوري، الإمامة والسياسة، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص١٨٤.

الديني السياسي، الذي حمله الكثير في زمن مضى، حيث تحوّل الترف مع المنافقين والطلقاء وأبنائهم من كونه ظاهرة فرعونية مكشوفة الكفر والعصيان والجحود، ليكون ترفاً دينياً مجرماً سبق لفرعون أن عبّر عنه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[1].. وهذا الدين، الذي هو في عرف القرآن سنّة اجتماعية في المجتمع الإنساني، كما يرى الطباطبائي[2]، تحول في تاريخ المسلمين ليكون تعبيراً عن ما أشار إليه فرعون من دين وطريقة مثلى في الحياة! إذ هو لا يختلف عنه في شيء، طالما أنه له المؤدّى ذاته، من حيث هو ترف تبدّل من كونه سنّة فرعونية، فأصبح سنّة إسلامية لا تنطبق في شيء على ما جاء به النبيﷺ.

وهنا تجدر الإشارة إلى مفارقة مهمة جداً، وهي ما يعرضه القرآن من مشاهد عن الحوار بين النبي موسى عليه السلام وفرعون، وما تبع هذه الحوارات مع قوم موسى بعد فرعون، حيث نجد أن الترف الفرعوني كان قليلاً إزاء ما بدر من قوم موسى، باستثناء أولئك السحرة الذين آمنوا، وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾[3]، وهو كلام كاشف عن حقيقة الإيمان في مقابل أولئك المترفين، وهم الأكثرية، الذين قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾[4]، وهنا تتجلّى الحقيقة الفرعونية فيما نطق به هؤلاء، والمشهد ذاته نجده في حوار النبيﷺ مع قومه الذين أترفوا وقالوا له: «**اعدل يا محمد، فإنّك لم تعدِل**»[5]، وكانت النتيجة أنهم مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، حيث خرجوا على النبيﷺ، واستكبروا في الأرض وكانوا قوماً مترفين.

تلكم مفارقات وموافقات عجيبة وفريدة في ما يعنيه الترف الديني الذي كان

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج١٠، ص١٨١.

(٣) سورة طه، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١١٣.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، م. س، ج١، ص٢٦.

شعاراً لفرعون، قبل أن يكون شعاراً لمترفة الأمة الإسلامية، إذ لا بأس أن نسمّيه بالترف الديني لكونه واجهة جديدة أُريد من خلالها اقتناص الدين الجديد وتحوله عن كونه ديناً إلهياً ليكون ديناً أموياً، أو عباسياً، أو عثمانياً.

وهكذا حصل حيث تحوّل الدين إلى فرعونية جديدة قوامها المال والسلطة وولاية العهد، وغير ذلك مما حفل به تاريخ المسلمين من عناوين في الدين والسياسة. ولعلّ الأمر يصبح أدهى فيما لو علمنا أن أحد الحكام المسلمين، لم يجد في حروبه ما يتغنّى به سوى الافتخار بأجداده، فقال: ليت أشياخي ببدر شهدوا...»، ولكن شهدوا على ماذا؟ على قتل ابن النبيﷺ في كربلاء. وذلك كله إنّما كان منه بهدف أن يعتدل الميزان بين قتلى الشرك والوثنية والترف، وقتلى أولياء الأنبياء؟ وبعد هذا كله يُقال: أين الترف الديني؟ وهل يصحّ أن نسمّيه بالترف باعتبار أنها كلمة مذمومة قرآنياً، إلى غير ذلك من المزاعم التي يُنتصر بها للترف الديني في عالمنا الإسلامي.

وهكذا، فإنّ معنى أن نحيط بهذه الظاهرة، الحقيقة، أن نهتدي بهدى القرآن لتوضيح معنى الترف وتمييزه عن التقوى والطاعة لله تعالى. ولو أن المسلمين كما قال الشهرستاني وكثير من علماء المسلمين سمعوا عن النبيﷺ وعقلوا عنه معنى الدين بما هو عقيدة وشريعة إلهية، لا بما هو سنّة اجتماعية دائرة في الاجتماع الإنساني لما آل أمرهم إلى أن يكونوا حيارى في زلزال من الأمر، وفي بلاء من الشك، ولما استبدّ بهم أمثال ذي الخويصري التميمي الخارجي الذي جاء اتهامه للنبيﷺ بعدم العدل، تعبيراً عن حالة مترفة الأمة الإسلامية، الذين تعاقبوا على حكم المسلمين، وقتلوا الأولياء الصالحين، في وقت لو كان فرعون موسى عليه السلام هو الحاكم فيهم لما قتل الأولياء، لأنه لم يسبق له أن قتل السحرة، بل قال لهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا

مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1].

إنّ ما شهده تاريخنا الإسلامي من ترف ديني وسياسي ليس له ما يشبهه في تاريخ الأمم والشعوب، والدليل على ذلك هو ما قاله رسول اللّه ﷺ: «**ما أوذي نبي مثلما أوذيت**»، وهذا يدلّ على مدى ما تعرض له النبي ﷺ في مواجهة مترفة زمانه من منافقين وطلقاء وغيرهم، هذا فيما لو كنا نودّ الحديث عن زمان النبي ﷺ وحضوره، فما يكون عليه الحال، وينتهي إليه المآل فيما لو أردنا أن نخرج من السقيفة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ إلى زماننا هذا؟ فما يكون عليه الحال، وماذا يمكن أن يقال، غير أن الذي حدث وجرى هو نهاية المقال!!!؟

فإذا كان الرسول ﷺ في زمانه، رغم صعوبات أيامه، قد حوّل المجتمع المترف إلا قليلاً، من مجتمع وثني تتحكم به الجاهلية الجهلاء، إلى مجتمع إسلامي حقيقي، يفتخر فيه الناس بروح الشهادة، وعظيم الصبر، وعزيمة الجهاد، كما يرى شمس الدين[2]، فإنّ هذا المجتمع بعد وفاة الرسول ﷺ، وإن كان حافظ على روح العقيدة والشريعة، إلاّ أنه تحوَّل سراعاً إلى مجتمع مترف يتخذ من الدين شعاراً ودثاراً لترفه كما بيّن إمام عبد الفتّاح إمام في كتابه الطاغية[3] إذ هو يكشف عن أسرار هذا الترف

(١) سورة طه، الآيات: ٧١ – ٧٣.

(٢) يرى شمس الدين: «أن عهد رسول اللّه ﷺ كانت روح الشهادة بين أصحابه شائعة كالهواء والنور، فحقّق الإسلام انتصارات واسعة تجاوزت كل القوانين العامة للتاريخ، لأنّ عاملاً نوعياً هو عامل الشهادة، غيّر المعطيات العادية لحركة التاريخ... أما بعد وفاته، فقد تغيّر الأمر كثيراً، إذ ما وصل المسلمون إلى زمان الإمام الحسين عليه السلام حتى تحول الأمر ودمرت روح الشهادة واستبدّ النظام الأموي، وآل أمر الأمة إلى أن تكون أمة خاملة، وقد أدرك الإمام الحسين عليه السلام أن الأمة فسدت، ولا بدّ من إصلاحها، فما كان منه إلاّ أن خرج مصلحاً ليفجّر في الأمة روح الشهادة من جديد، لتغدوَ مع ثورته وشهادته كالنور والهواء كما كانت في عهد رسول اللّه ﷺ.

انظر: شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين، الرجال والدلالات، المؤسسة الدولية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٦م، ص١٢.

(٣) را: إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٨٣، ١٩٩٤م، ص٢٠٨.

الديني والسياسي الذي مارسه الخلفاء، والذي تبدّى المجتمع الإسلامي من خلاله وكأنّه عالم من الوحشية يسوده الظلام، وتكتنفه حيرة الثكلان، وخاصة فيما يشير إليه من حال الفقهاء والعلماء وأصحاب المدارس والفرق الإسلامية التي يهون معها أن تقرأ سيرة فرعون وقارون وهامان، لأنّك قد تجد شيئاً من العقل والسياسة، بل والمنطق أحياناً في مجادلتهم، أما مع ما حفل به عالمنا من حكام، فذلك مما لا يمكنكك تصوّره ولا تصديقه نظراً لما تعثر عليه من كفر وجحود وعصيان تجلّت أكثر ما تجلّت فيما زعمه هؤلاء الحكام المترفون من ظلّيّة سماوية، وحاكمية إلهية، وعهدية زمانية عنونها الحاكم الأموي بقوله بعد أن بويع بالخلافة وهو يقرأ القرآن، قال: «**إنّ هذا هو آخر عهدي بك**»[1]، فما بالك بذلك الذي قال: إن سألك فقل له مزّقني الوليد[2]...

نعم، إنّ الذي قيل في كربلاء، وفي كل معارك الإسلام الناصعة، هو أن اللّه خير وأبقى، المقالة الممتدة من آدم عليه السلام إلى يوم يبعث الإنسان للحساب، مقالة امتدّت في زمان الأنبياء، وتحققت على نحو يؤكّد أن ما خفي علينا من الأمم السالفة، لم يعد خافياً على أحد ممن اعتبر واتقى ورأى بأمّ عينه كيف أن الأيام يتداولها الناس، ويتعرّفون إلى حقائقها وفاق السنن التاريخية الحاكمة، كما بيّنّا سالفاً، إذ إنّ الناس على إثر بعضهم البعض، وكما قال الإمام الحسن عليه السلام. إنها السنن والأمثال يشبه بعضها بعضاً، فما يخفى على أحد أن الترف الديني بكل تجلّياته الجاهلية لم تنفرد

(١) م.ع، ص٢٠٨ – ٢١٠، يقول عبد الفتاح: إنّه لما علم عبد الملك بن مروان أنه بويع بالخلافة، والمصحف في حجره، فأطبقه وقال: هذا آخر عهدنا بك، وهكذا بدأ خلافته.

(٢) جاء في كتب التاريخ والتفسير أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الحاكم الأموي الجبّار تفأل بالقرآن يوماً لكي يرى حظه في المستقبل، فظهر له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فاستوحش وأخذته العصبية ومزّق القرآن وأخذ ينشد:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر، فقل يا رب مزّقني الوليد

را: الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث، بيروت، ج٧، ص٣٧.

وقا: مع ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت (ت ٦٣٠هـ) ١٩٦٦م، ج٥، ص٢٩٠.

به الأمة الإسلامية، بل كان يظهر مع كل أمة كانت تفتقد نبيّها سواء بالغيبة، كما حصل مع النبي موسى عليه السلام، أو بالموت، أو بالقتل، حيث نجد هذه الأمم تنتج جبابرتها من علماء وحكّام مترفين ليكونوا بديلاً للفرعونية الظاهرة، التي، كما رأينا، أنها كانت في بعض مظاهرها أخفّ وطأة من الفرعونية المقنّعة التي عايشها الناس طيلة قرون من الزمن. كما أنه لا يخفى أيضاً، وهو من الأهمية بمكان، أن نشير إلى ما جرى مع النبي موسى عليه السلام حينما ذهب لميقات ربه لمدة أربعين ليلة، وكانت النتيجة ما جرى مع أخيه هارون حيث ظهرت الفرعونية في وسط النبوة، متمثّله بأولئك الذين فتنوا بالسامري، واتخذوا منه إلهاً يعبد من دون الله تعالى قبل أن تجفّ أقدامهم من ماء البحر!؟[1].

وهكذا، فإنه من العجب أن لا يعتبر الإنسان مما جرى، فيقوم بتقليد واتباع ما سبق له أن علم وهنه وضعفه وهوانه، وقد سبق لعلي عليه السلام أن قال: «**ما أكثر العبر**

(١) لقد عرضنا سابقاً لمعنى موت الأمم في ضوء السنن الحاكمة في ميدان التاريخ، وفي كل زمان، وخاصة في ميدان السنن المشروطة، وطالما أننا نتحدّث عن مصائر الأمم وما آلت إليه الأمة الإسلامية من ترف ديني وسياسي في تاريخها، فلا بأس أن نشير إلى حاكمية السنن وما عرض له القرآن في شأن أولئك الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله تعالى، وقد استجاب الله تعالى لهم وبعث طالوت ملكاً. ولكنهم رفضوا ما اختاره الله لهم من بسطة في العلم والجسم، وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، وهكذا عبّروا عن فساد داخلهم، وترف قلوبهم بما سوّلت لهم أنفسهم، كما أشرنا في السامري قبل قليل، وجادلوا بالباطل، وكانت النتيجة أن شربوا من النهر إلا القليل ممن اغترف بيده غرفة، والحكمة هنا تكمن في أنّ الأكثرية الساحقة التي شربت هي التي انهزمت، والقلة هي التي انتصرت. حيث قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهكذا هو حال سائر الأمم أنها تركن للترف، وترضخ للظلم، وقد دلّ السياق القرآني على أن هذه السنّة هي سنّة حاسمة، ومن خلالها تحيا الأمم وتموت، تماماً كحال أولئك الذين قيل لهم ادخلوا الأرض المقدّسة، فلم يدخلوا، وكان لهم التيه أربعين عاماً، بسبب انعدام المبادرة والخوف من ملاقاة العدو. هناك الكثير من الأمثال والآيات التي تكشف لمتدبّر في كتاب الله تعالى أن الامتثال في الشأن الحياتي من جانب الأمة مؤشّر يمكن في ضوئه التنبّؤ بمدى قدرتها على الثبات في ساحة القتال، والقرآن، يوجهنا إلى ضرورة وأهمية أن نتلمّس أدلّة محسومة على الصدق ممن تتوجّه إليهم الدعوة، أو يُطلب منهم الامتثال لأمر الله تعالى.

انظر: د. السيد عمر، خارطة المفاهيم القرآنية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩م، ص٧١.

وما أقل الاعتبار»[1]. تلك هي حالة الأمم مع الأنبياء ومن دونهم، وقليل هو عدد الذين يعتبرون ويتّعظون بما جرى ويجري، وهذا كلّه ناشئ من كون الإنسان لم يحسن التعرف إلى حقيقة ما ينبغي أن ينتمي إليه من عقيدة وشريعة، بل إنه لم يدرك حقيقة العبادة ولمن ينبغي أن تكون حتى يكون شكره لها وافراً، بحيث يكون مصداقاً لأولئك الذين عبدوا الله حق عبادته وانتموا إليه حقيقة الانتماء، أما أولئك الذين غابوا في ترف الأيام والأحلام، فهم أعجز من أن يكونوا قادرين على أداء الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وإذا كان الحال مع ربّ العباد كذلك، فما يمكن أن ينتظر من هؤلاء في صروف الدهر ومكارهه، وفي غياهب الترف ومسالكه. إنّهم تمثّلوا حال الأمم السالفة فضلّوا وأضلّوا، وكانوا مصداقاً لما شبّهوا به على لسان رسول اللهﷺ بأنهم أتباع وتمثّلات حقيقية لتلك الأمم التي شبّهوا بها، قدرية الأمة، ومجوس الأمة، ويهود الأمة، ونصارى الأمة، كما قالﷺ: «**لتسلكنّ سُبل الأمم قبلكم حذو القذّة بالقذّة، والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه**»[2]، إنه معنى الوحي الذي أنبأنا به رسول اللهﷺ، وأرشدتنا إليه تجارب الأمم فيما كانت لها من تجارب وأحداث، وإيمان وكفر، وترف مادي وديني. وإذا بقي لنا أن نقول شيئاً في معنى الترف الديني والسياسي، فإننا نقول: إنّ الأمة الإسلامية فيماانتهت إليه في عصرنا الحاضر، هي امتداد حقيقي لا لمن سلف منها، وإنما لكل الأمم التي عملت فيها السنن، وغابت عنها الحكم، وكانت

(١) يمكن لمتدبّر في القرآن أن يلحظ بموضوعية سياق الأحداث وترسمها في كشف مصائر الأمم وتشابه قلوبهم، فأتباع السامري، قال فيهم تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. أما أتباع مسجد ضرار، فقال فيهم: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]. وهذا يؤكد لنا تشابه القلوب، وتعاقب الأمم وفاق القسم الإبليسي الشيطاني: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: اعتبروا بحال وَلَد إسماعيل، وبني إسحاق، وبني إسرائيل، فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال.

النتيجة تحول هذه الأمة إلى مجوس وقدرية وفرق لا تعدّ ولا تحصى، ومثلما أن أمةً من الأمم لم تخلُ من عباد صالحين، وشهداء أحياء، وأولياء عاملين لهدايتها، تماماً كذاك المشهد المزدوج الذي تجلّى في أمة موسى عليه السلام، حيث نجد كيف أن السحرة خرجوا من دائرة الترف الفرعوني غير آبهين، وفي مقابل هذا المشهد نجد أمة موسى عليه السلام في مشهد آخر تخرج إلى عبادة العجل وتسمع للسامري في ما ادّعاه لها من إله، فهذه مشاهد ليست حكراً على أمّة من الأمم، وإنّما هي من تجلّيات مخاضات الأمم فيما تعيشه من كفر وإيمان، وترف وطغيان، ولا بدّ أن في هذه الأمة الإسلامية مَن خرج أو يخرج ليقول: «**ربّنا اغفر لنا خطايانا وما أُكرهنا عليه من السحر أو الترف**» اعتقاداً منهم بأن الله خيراً وأبقى.

إنّ قولنا هذا يمكن أن نسوّغ له من خلال آيات الله تعالى التي هي خير مرشد لمن تدبّر بها واتعظ منها، لأنها كلمات الله التي لا تنفد، ولا تبدّل، وهي ناطقة بالحق، وقد اقتضى منا هذا المبحث أن نركّز على سياق الآيات القرآنية وليس على النصوص التاريخية، لأنّ القرآن هو خير مرشد للباحث في طريق بحثه، كيف لا وقد قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ..﴾[1]، ونسأل الله العليّ القدير أن نكون من المهتدين والمعتبرين والمتدبّرين في آياته، وقد نكون، إن شاء الله، وفّقنا إلى ملاحظة بعض الحقائق في سياق حديثنا عن الترف والمترفين، وخاصة في مجال ما يدّعيه المترف من قول أو فعل، سواء في الماضي أم في الحاضر، في الأمة الإسلامية، أم في غيرها من الأمم. والحق يُقال: إن الأمة الإسلامية خرجت عن كونها خير أمّة أخرجت للناس بفعل إرادتها وليس رغماً عنها، إذ هي لم تميّز في تاريخها بين أن تكون تحت حكم الفرعون والطاغوت والمترف، وبين أن تكون تحت حكم ووصاية أولياء الله تعالى، فكان لها ما أرادت، والله غالب على أمره، ولا معقّب

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

لحكمه، ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً. وقد قال علي عليه السلام: واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثُلاتِ بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أفعالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم... وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونواأثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، اتخذتهم الفراعنة عبيداًفساموهم سوء العذاب، وجرّعوهم المُرار، فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حتى إذا رأى الله جدّ الصبر منهم على الأذى في محبّته وإلاحتمال للمكروه من خوفه جعلَ لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العزّ مكان الذلّ، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً، وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم...»[1].

المبحث الثالث: المترفون وصناعة الفساد

عرضنا في مبحث الترف والفساد وما بينهما من اتصال لمعنى أن يكون الترف حقيقة نفسية قلبيّة قبل أن يكون مظهراً خارجياً، أو تعبيراً ظاهرياً للإنسان، أو المجتمع. وقد رأينا كيف أن المترف هو إنسان ينطوي على اعتقاد ورؤية دينية، أو فكرية تجعله أسير شهواته وملذاته، هذا فضلاً عن كونه، أي الإنسان المترف، ينضوي على خصائص ومميزات تتقاطع مع كل ما أسس له إبليس في منظومة الخلق والحياة، وهذا ما أطلق عليه بعض الباحثين، فقه إبليس لكونه يقوم في جوهره على الحسد والكبر والتفاخر[2]، وبعضهم أسماه باللعين الأول الذي تمرّد على أوامر الله تعالى، واختار أن يكون عدوّاً لآدم عليه السلام إنها العداوة التي تأسّس عليها الكثير من المفاسد في عالم الخلق بعد أن توعّد إبليس وأرعد أن يكون مضلاً للإنسان،

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م،س، الخطبة: ١٩٢.

(٢) را: الشهرستاني، م. س، ج١، ص١٨، وقا: مع أيوب سعيد، معالم الفتن، م. س، ص١٨٢، وقا: مع الطباطبائي، الميزان، ج٢، م، س، ص٢٧٢.

ودافعاً به إلى أن يكون تعبيراً عنه في كل ميدان من ميادين الحياة، ولعلّنا قد بيّنا بعض الآراء المهمة التي من شأنها أن توضّح مدى الارتباط الوثيق بين المترفين وما يحدثونه في المجتمع الإنساني، وبين الفقه الإبليسي القيّم على الإضلال والغواية، وهذا إنّما رأيناه ضرورياً لكونه يقوم على أساس الرؤية الموضوعية للآيات القرآنية التي ربطت وقابلت بين الأنبياء والمترفين، فلو لم يكن لهذا الربط دلالاته، لما رأينا القرآن يُرشد إليه على النحو الذي يخرج المترفين عن كونهم أصحاب سلطة ومال وثروة وقوة، ليكونوا أصحاب رؤية وموقف وعقيدة يترجمون من خلالها مفاسد ثرواتهم وأموالهم، وكما قلنا: إنّ المترف إنما هو مترف لكونه يشكل امتداداً لإبليس والشيطان في أطروحته للحياة، وليس لكونه يملك الأموال والثروات، وإن مما يدلّ على هذه الحقيقة، هو ما تفيده الآيات القرآنية الكثيرة التي عبر بها المترفون عن حقيقة مشروعهم وانتمائهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات التي تفيد التلاقي بين إبليس والمترفين، سواء في الرؤية والاعتقاد، أم في المنطق والسلوك. ومن خلال هذا المعنى التي تتضمنه الآيات يمكن لنا أن نفهم حقيقة التقابل بين مشروع النبوة بما هو امتداد لإرادة الله تعالى وشريعته، ومشروع المترفين بما هو امتداد لفقه إبليس ومعصيته، وعلى هذا تتابعت البشرية منذ آدم عليه السلام إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويبقى هذا الامتداد مستمراً ما دامت الدنيا والحياة عليها قائمة.

وهكذا، فإنّه في ضوء ما تقدم يمكن لنا أن نبحث موضوع صناعة الفساد من خلال منهجنا الموضوعي، الذي نرى فيه المنهج المناسب جداً لاستيعاب حقيقة موضوع الترف والفساد في القرآن الكريم، وهذا ما يقتضي منا أن نفصل بين المواضيع

(١) سورة التغابن، الآية: ٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

القرآنية بهدف الاستفادة من حقيقة التمايز القائمة فعلاً بين ما تشير إليه الآيات في صناعة الفساد، إذ هناك بعض الآيات تتحدث عن الفساد بما هو صناعة خاصة بأناس معينين، وفي آيات أخرى تنسب صناعة الإثم والعدوان والفساد إلى الأحبار والرهبان والعلماء، وهذا ما يقتضي منا كما أشرنا إفراد عناوين خاصة نعالج من خلالها موضوع المترفين والفساد، على أن يكون هذا المبحث منقسماً إلى قسمين، قسم يتناول صناعة الفساد عند الولاة والحكام، وقسم يتحدّث عن صناعة الفساد عند العلماء والأحبار.

أ - الحكام وصناعة الفساد:

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تلحظ الصنع ومعناه، وترشد إلى مدلولات مختلفة له، فالصنع تارة يأتي بلحاظ كونه تعبيراً عن غاية الإتقان في الخلق، وطوراً يأتي بلحاظ كونه عملاً إنسانياً له دلالاته في القول والفعل، من قبيل قوله تعالى باللحاظ الأول: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]، وباللحاظ الثاني قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[3]. هذه جملة من الآيات المباركة التي تعرضت لمعنى الصنع ودلالاته، وقد أتينا على بعض هذه الآيات لكوننا سنعرض في سياق بحثنا لجملة الآيات القرآنية في موارد مختلفة، وحيث يقتضي أن تكون الدلالة ظاهرة المعنى فيما نريد التدليل عليه والإشارة إليه. وعليه، فإنّ معنى الصنع، كما أفاد أهل اللغة، يأتي بمعنى الفعل والإتقان فيه، كما رأى الراغب في مفرداته، بأن كل صنع

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٤.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٨.

فعل، وليس كل فعل صنعاً[١]، وجاء في لسان العرب معنى صنع، فيقال: صنعه يصنعه صنعاً ومصنوع وصُنعُ عمله، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[٢]، تأويله: اخترتك لإقامة حجتي... والاصطِناع: افتعالٌ من الصنيعة، وهي العطية والكرامة والإحسان. والصناعة: حِرفة الصانع، وعمله الصنعة، ورجل صَنيع اليدين، وصِنع اليدين، بكسر الصاد، أي صانع حاذق، وامرأة صُناعُ اليدِ حاذقة ماهرة بعمل اليدين[٣].

إذن، الصناعة، كما أفاد أهل اللغة، ليست مجرّد فعل، وإنّما هي اختيار ووعي وحذاقة، وإتقان فيما يريد الإنسان القيام به من فعل[٤]. أما لجهة الدلالة فيما يعنيه صنع اللّه تعالى، فالصنع، كما يرى ابن منظور، عن ابن إسحاق، أن القراءة بالنصب ويجوز بالرفع، فمن نصب فعلى المصدر، لأنّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، دليل على الصنعة كأنه قال صَنعَ اللّهُ ذلك صُنعاً، ومن قرأ صُنعُ اللّه، فعلى معنى ذلك صُنعُ اللّه تعالى[٥].

غاية القول: إن لهذه المفردة دلالات مختلفة في القرآن الكريم، ما يقتضي لحاظ معناها في سياق مبحثنا لكونها تدلّل على أن هناك أفعالاً ناشئة عن وعي واختيار وحذاقة، وأخرى ليس لها المؤدّى ذاته، وهذا ما نودّ التعرض له في مبحث

(١) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، م. س، ص٢٩٤.

(٢) سورة طه، الآية: ٤١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج٤، ص٢٥٠٨.

(٤) يرى الفلاسفة وعلماء الكلام، أن الإبداع والخلق والصنع كلها ألفاظ متقاربة المعاني في اللغة العربية، فكلها تعني الإيجاد إلاّ أن لكل واحد خصوصية تنطبق على ذلك الفعل الذي هو الإيجاد، والصنع له هذه الخصوصية التي تنبئ عن الدقة والعناية والهندسة في الفعل.. واشتق منه الصانع... وبعضهم جعل استخدام هذا الصنع خاصاً بالمتكلمين مميزاً لهم عن الفلاسفة الذين قالوا بمصطلح «واجب الوجود»، وعن العرفانيين الذين استخدموا «نور الأنوار»، وهكذا المتكلمون، فقد خصّوا بلفظ الصانع للدلالة عليه تعالى وصدروا إلهياتهم به.

انظر: القشعمي، محمد صالح، الإلهيات والفلسفة العليا، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٥٨.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، م. س، ص. ن.

صناعة الفساد عند المترفين، على اعتبار أن القرآن إنّما عرض لهذه المفاهيم المختلفة بهدف الاستفادة منها في تحديد ملامح الشخصية الإنسانية أولاً، وملامح المجتمعات الإنسانية ثانياً، وذلك من منطلق أن النص القرآني لم يأتِ من خارج الواقع والتجربة الإنسانية، بل هو يعبّر عنها في إطار رؤية شاملة تستوعب حقيقة ما هو عليه الإنسان، سواء فيما هو كائن عليه، أم فيما ينبغي أن يكون عليه. ومن هنا قال العلماء: إن المورد لا يخصص الوارد، وإنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهم إنّما لحظوا هذا في شروحهم وتفسيرهم لكون النص حاكم على التجربة، ومستوعب لها، وكاشف عمّا تقتضيه حقيقة التحوّل الإنساني في سياق السنن التاريخية والاجتماعية الحاكمة والسارية في الزمان والمكان والإنسان.

وانطلاقاً مما تقدم، نرى أن صناعة الفساد في المجتمع الإنساني لا تلحظ في القرآن في سياق مجرّد عن وعي الإنسان وإدراكه، وإنّما هي تأخذ الواقع وتدلّل عليه من خلال رؤية موضوعية شاملة، وهذه الرؤية القرآنية الشاملة تقول إن منشأ الفساد في المجتمع الإنساني لم ولن يكون نتاج صدفة، أو تحوّل فجائي، بل هو ناشئ عن حذاقة فعل ووعي وإتقان يقوم بها المترفون لإحداث تحوّلات سياسية واجتماعية وثقافية ملائمة ومعبّرة عن مشروعهم الهادف إلى تحويل المجتمع عن وجهته فطرياً واجتماعياً، وقد بيّنا سابقاً ما للترف من دور في صناعة الفساد بما هو فقه، لا بما هو مال وثروة، وهذا ما أرشد إليه القرآن في كثير من آياته، فهو حين يعرض لعمل السحرة بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[1] فصنع السحرة لم يكن مجرّد عن الوعي والإتقان، بل كان صنعاً واعياً وهادفاً إلى إضلال الناس، والتأثير على قلوبهم وعقولهم ليكونوا تحت تأثيرهم اجتماعياً وسياسياً، وقبل ذلك الهيمنة على أفكارهم ليكونوا بمنأى

(١) سورة طه، الآية: ٦٩.

عن أي تحوّل من خارج الرؤية الفرعونية، فهم يُجيدون فنّ السحر لا من حيث هو مجرّد عمل أو مهنة، أو غير ذلك مما يأتي به الإنسان من أعمال في حياته، بل هو سحر قائم على فقه ووعي بضرورة أن يبقى الناس أسرى لهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1]. إنّ الهدف واضح ولا بدّ من تسويغه في إطار من الوعي الاجتماعي وعن أي طريق، سواء عن طريق السحر، أم عن طريق آخر يمكن أن يختاره المترف لتسويغ أطروحته في الحياة، وهذا ما يمكن تلمّسه من تاريخ الفراعنة والمترفين، وما التجربة الإسلامية عنا ببعيدة، حيث الحكام والولاة يعتمدون الأساليب والوسائل ذاتها في إقناع الناس ليكونوا مندمجين في مشروع الترف ضدّ النبوة، وقد بيّن لنا ابن خلدون[2]، وغيره ممن كتبوا في الاجتماع البشري والتاريخ، كيف أن الحكام الأمويين والعباسيين قد تفنّنوا في وجوه الصنع لتحويل الناس عن مشروع النبوّة، ويمكن للباحث أن يأخذ عيّنات من تاريخ المسلمين ليكشف بنفسه مدى ما وصل إليه الصنع الحاذق في السياسة والدين معاً لتسويغ نظرية هذا الحاكم أو ذاك، وخاصة في العصر الأموي، الذي أعطى للترف أبعاداً ووجوهاً لم يهتدِ إليها الفراعنة في تاريخهم»[3]؟!

كما نلاحظ أيضاً أن القرآن جاء بمفردة الصنع، وبصيغة المضارع في كثير من الآيات، فقال تعالى في أهل الكتاب، وفي النصارى تحديداً: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[5]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، م. س، ص١٧٤. إن الترف يذهب بخصال الخير، ص١٦٩.

(٣) را: مقالة ابن خلدون بما فعله الحجّاج حينما سأل عن ولائم الفرس، وقال لأحدهم أخبرني بأعظم صنيع شهدته لكي يكون من صنيعه ما لا يأتيه أحد لشدّة ترفه، المقدمة، م. س، ص١٧٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٤.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[1]، ولعل أهم ما يمكن التوقف عنده في هذا المبحث هو ما عرض له القرآن في سياق ما تعنيه الصلاة وتلاوة الكتاب، حيث قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2]، ولهذه الآية دلالات كبيرة وعظيمة فيما لو أردنا أن نقف على ما يعنيه الصنع في سياقه لجهة ما تعنيه التلاوة للكتاب والصلاة، ولكن هذا الأمر خارج عن المبحث ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لبحث هذا الموضوع في مبحث مستقل.

وكيف كان، فإنّ صناعة الترف بما هي صناعة فساد يقوم بها الحكام في كل زمان ومكان وفقاً لرؤية وفقه تحقيري، وقد تابعهم فيها المنافقون الذين لم يدّخروا جهداً إلاّ بذلوه لاكتساب مغانم المترفين والفراعنة، باعتبارهم يشكّلون الامتداد الحقيقي لعقائد الشرك والوثنية، حيث نجد في التاريخ الإسلامي كيف أنهم تابعوا المترفين، وعبّروا عن منظومتهم تحت ستار الدين والإسلام والخلافة والشورى، مستخدمين كل وسائل الترف والنفاق للحفاظ على مصالحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، سواء من خلال الدين، أم من خلال غيره، فإذا كان الدين يؤمن لهم ما يبتغونه، فإنّهم كانوا يأخذون به ويرفعونه شعاراً لهم، كما جرى في صفّين والجمل والنهروان حتى زماننا هذا، فإنّنا نجد أكثر من يُجيد صناعة الدين، بماهو سنّة اجتماعية دائرة في المجتمع والنفاق، يقوم بممارسة كل شيء لأجل تظهير ذاته دينياً وسياسياً واقتصادياً على النحو الذي يوحي بأنه يجسّد الحق وأهله، وهو إنما يلجأ إلى هذه الأعمال لغايات أخرى لا تختلف عمّا كان يقوم به من سبقه من السلف، وهذا، كما بيّنا، من السنن التي ينبغي الفهم لها والاعتبار بها، لأن الإنسان لم يترك سدى، وقد خصّه الله تعالى بما يؤهله لأن يكون صانعاً لقوله

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وفعله بما يخدم إنسانيته، ويُعطي خلافته في الأرض معناها الحقيقي، بحيث يكون له الامتداد الإلهي، وليس أي امتداد آخر مما اختاره الشياطين وإبليس والمترفون. إنّه صراع حقيقي دائر بين الناس منذ أن هبط آدم إلى الأرض، بين إنسان اختار أن يكون امتداداً لهُدى الله تعالى، وبين إنسان آخر اختار التحول عن ذات نفسه، وعن فطرته وشهادته ليكون تعبيراً عن الشيطان ومنطقه. ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد نصر عبده فيما هيّأه له من ظروف ووسائل وقوة عقل ومنطق وصبر لما تمكن الحق وأهله من متابعة هذا الصراع الذي وعد الله تعالى بأن يكون النصر فيه حليف الذين آمنوا وعملوا الصالحات...

لا شكّ في أن بحثنا هذا لا يبغي التأريخ لحكّام الفساد في التاريخ الإنساني، ولا هو هادف إلى التعرّف إلى جودة أو هشاشة صناعاتهم فيما أجادوا فعله في تاريخ الإنسان لإغوائه، بل أردنا فقط وفقط أن نؤسّس لرؤية قرآنية واضحة تعزّز فرضية أن ما يقوم به الحكام والولاة في كل زمان من خارج دائرة الوحي والنبوة، هو صناعة شيطانية ينبغي بل يجب الحذر منها والقيام بما يلزم لمواجهة مفاعيلها الاجتماعية والسياسية والدينية كما أمر الله تعالى، على اعتبار أن الإنسان مخلوق مختار ومكلّف بأن يقوم بالدور المناط به في دائرة وجوده، هذا فضلاً عمّا خصّه الله تعالى به من وحي وهداية وكلمات تامّات لا تبديل لها[1] تشكّل ضمانة استمرار هذا الإنسان حياً على مدى الأزمان. وقد تمكّن الأنبياء ومن سار في خطهم واتبع ما صنعوه للمؤمنين من تحولات إيمانية وإنسانية بهدف الوصول إلى مستوى إدارة

(١) قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول مطهري: «إن الدين هو الفطرة ولا تبديل لخلق الله تعالى، وهذا يعني أن الدين هو كلُّ ما في داخل الإنسان وتركيبه ومسار تاريخه، هذه القيمومة في الدين هي التعبير المجمل للآية عما يكتنف هذا من علاقات بينه وبين ما خُصّ به من لدن الله تعالى».

را: مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، م. س، ص٣٦٦.

عملية الصراع وهزيمة المترفين، كما قال الإمام علي : «**فانظر كيف كانوا حيث كانت الأمْلاءُ مجتمعةً، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلةً، والأيدي مترادفةً، والسيوف متناصرةً، والبصائر نافذةً، والعزائم واحدةً، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين... فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقةُ، واختلفت الكلمة والأفئدة.. قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين..**»[1].

إنّ أدنى تأمّل في تاريخنا الإسلامي لا بدّ أن يكشف عن حقيقة مفادها أنّ صناعة الفساد التي اختارها الحكام والولاة طريقاً للفوز في الدين والدنيا لم تفلح رغم كل ما وقع في تاريخنا من مساوئ، لأنّ مشروع النبوّة ضمن للإنسان المؤمن أن يكون عزيزاً وحيّاً في كل تحوّلاته، وليس صحيحاً ما يدّعيه البعض ممن اختاروا التعادل في طرح رؤيتهم الإسلامية، أن الولاة والحكّام، وإن كانوا تميّزوا في الفساد والفجور، إلاّ أنهم قدّموا للأمة الإسلامية إيجابيات جمّة على مستوى الدين والسياسة[2]، وكذلك ليس صحيحاً ما زعمه بعضهم من أن الأمويين لم يعرّضوا الإسلام والمسلمين للخطر، كما هو مفاد وخلاصة ما ذهب إليه الأستاذ محمد قطب في كتابه التاريخ[3]، وإنما الصحيح هو أن يُقال بأن المترفين ممن أجادوا صناعة الفساد في تاريخنا الإسلامي لم يتمكّنوا من إحكام سيطرتهم على الدين الإسلامي لما واجهوه من ثورات إيمانية وحركات نبوية وإصلاحية منعت هؤلاء المترفين من التمادي، وأسّست لمشاريع المعارضة الصادقة، ولصناعة فكر إسلامي تمتدّ به الأمة الإسلامية في التاريخ والزمان، وليس بعيداً من هذا أن نذكر ما حقّقته كربلاء

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١٩٢.

(٢) انظر: إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، م.س، ص٢١٣.

(٣) قطب، محمد، كيف نكتب التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص١٣٤.

من صناعة في الفكر والعمل، في الدين والسياسة، وفي جميع ما له دخالة بحياة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

كما تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى ما عرض له القرآن من رؤية في إطار الكشف عن مشروع المترفين وما يتسبّبون به من أزمات على مستوى الواقع الإنساني، بعد أن عرضنا لكل مساوئهم وامتداداتهم الشيطانية بالفكر والعمل وصناعة الفساد، فنقول: إنّ الإسلام ينسب إلى هؤلاء صناعة الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فضلاً عن الفساد الديني، حيث قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

لقد توقّف المفسرون للقرآن مليّاً عند هذه الآية، واستغرقوا فيها من حيث المفهوم واللغة والدلالة، ولجهة ما ترمز إليه من مخاوف اجتماعية واقتصادية بما كسبت أيدي الناس، وقد عبّر الله تعالى باللباس للإحاطة، والقرية هنا هي تجسيد للحياة الإنسانية حيثما تجلّت، ولكنهم لم يلتفتوا إلى معنى وحقيقة الصنع في الآية، واكتفوا بمجرّد الإشارة إلى قدرة الله تعالى وإنعامه على الإنسان فيما يحتاج إليه لتأمين استقراره، ومعيشته، مع الإشارة من قريب إلى سبب نزول هذه الآية التي نرى أنها تحملُ مدلولات عظيمة جداً يمكن لمن يعمل في حقل الاقتصاد، أو علم الاجتماع السياسي، أن يُظهر مكوّنات هذه الآية المباركة من خلال إعطاء فعل الصنع معناه الحقيقي، فيخرج به عن كونه مجرّد فعل، ليعطيه بُعده في دائرة الوعي القيادي للمجتمع، باعتباره هو المسؤول عن صناعة الفساد، والقائم بها، وهذا الوعي غالباً ما يكون متمثلاً بنخبة سياسية واقتصادية حاذقة تؤدّي بالمجتمع

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

نتيجة فسادها إلى أن يذوق لباس الجوع والخوف بما صنعوا[1].

هذه هي الخلاصة التي أردنا الانتهاء إليها في مبحث الولاة وصناعة الفساد من

(١) إنّ الآية ترشد إلى أن صناعة الترف هي التي تؤدّي بهذه القرية إلى الهلاك، لأنّ القيّم على كل اجتماع سياسي، وخصوصاً في العصر الحديث، يدرك جيداً معنى أن يكفر مجتمع من المجتمعات بنعم الله تعالى، وهذا الإدراك يتأتى له من خلال المظالم التي تلحق بهذا المجتمع من قبل القيّمين عليه سياسياً واقتصادياً. فإذا لم يلحظ هؤلاء بحكم قيمومتهم مسألة العدالة في التوزيع، ويقوموا بوضع سياسات اقتصادية واجتماعية لإدارة الثروة، وتأمين ما يلزم لتحقيق الاستقرار، فإنّ هذ المجتمع لا يلبث أن يقع في أزمات كبيرة قد تؤدّي بالناس إلى الكفر والثورة والعصيان، وقد بيّن علماء الاجتماع السياسي أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تشكّل الإطار الطبيعي لفهم حقيقة سياسات المترفين، وغالباً ما يتمّ التعبير عن هذه الظروف باللغة السياسية لفرض واقع جديد وتهدئة الخواطر، وخلق المناخ الملائم تحاشياً للثورة، ما يؤكّد لنا أن الآية المباركة هي في الجوهر فيما تؤكّد عليه من صناعة تؤشّر إلى أن سوء الإدارة من قبل المسؤولين عن الواقع، بما هم خبراء وأهل اختصاص ولديهم الوعي بما يقومون به، هو الذي يتسبّب بالأزمات الاقتصادية، وهذا ما أطلق عليه القرآن مصطلح الكفر بالنعمة بما يعني من عدم قيام بحق هذه النعمة، وهو إنّما أطلق الكفر بالنعمة على مَن لم يحسن إدارة الأزمات في المجتمع، وأذاق الناس لباس الجوع والخوف. وكلنا يعلم أن المجتمع وأكثرية الناس ليسوا على وعي اقتصادي أو سياسي، حتى يكونوا مشمولين في هذه الصناعة. إنّ فقه الآية، بما تحويه من تأكيد على صناعة الفعل، يرشدنا إلى تلك الفئة المترفة التي تقوم بإدارة شؤون المجتمع، وتسيء إلى ثروته، سواء من حيث الإنتاج، أم من حيث التوزيع. هذا ملخص لما وفّقنا له من تحليل واستنطاق للآية المباركة، والتي هي عنوان اقتصادي وسياسي واجتماعي يمكن للفقهاء وأهل الخبرة أن يؤسّسوا عليها لإنتاج نظرية في مجال الرؤية الاقتصادية وتشكلات المجتمع السياسي. ولعلّنا لا نخطئ القول بأن أكثرية المفسرين لم يتعرضوا إلى كثير من تفاصيلها، ومرّوا عليها دون أن يلتفتوا إلى تضميناتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن خلال هذا الفهم يمكن لنا أن نطلق الأحكام بشأن ما تتعرض له المجتمعات الإنسانية من مظالم، فنقول: إن صناعة الترف، قديماً وحديثاً، هي المسؤولة عن عدم استقرار المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

إن صناعة الترف هي التي تؤسس للمظالم، وتدفع بالناس إلى أن يكونوا أسرى الأغنياء بسبب الحاجة إلى المال والثروة لإدامة حياتهم، وهذا يؤدّي بهم إلى أن يتحولوا وفاقاً لمنظومة الترف الهادفة أساساً إلى استثمار هؤلاء في المشاريع السياسية والاقتصادية، ليكونوا أمة الاستخفاف، وشعبة الاستبداد..!؟

إنّ صناعة الترف، كانت ولا تزال تسعى إلى رسم حدود فاصلة بين المال والثروة والدعوة النبوية للحيلولة دون أن يكون للنبيﷺ أو للصالحين من عباد الله تعالى، أي دور في الاستفادة من المال والثروة في تعزيز استقرار المجتمع من خلال تأمين الحاجيات التي تسمح للناس الصالحين من متابعة دورهم وتحمّل مسؤولياتهم وفاقاً لرؤية أخلاقية تمنع من الاستبداد والاستئثار والاحتكار، ولعل قوله تعالى في سورة المنافقون يرشد إلى ما يبتغيه المترفون من سطوة المال والثروة حيث قال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

منظور قرآني، حيث تبيّن لنا أن تأكيد القرآن على صناعة الفعل ليس هادفاً إلى تبيان مجرّد الفعل الصادر عن الإنسان، وإنّما هي صناعة هادفة متقنة لفعلها في كل دوائر الاجتماع الانساني، ما يعني ضرورة التأمل في هذا المصطلح، والتأكيد عليه لجهة دلالاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، على نحو يمكّن الباحث من إدراك خطورة هذه الصناعة التي نسبها الله تعالى في كتابه العزيز إلى أهل الكتاب تارةً، وإلى السحرة طوراً آخر، وإلى المسلمين ثالثة، لأنّ مقصود القرآن من هذا أن يعي الإنسان حقيقة كل تحوّل في الحياة، هذا فضلاً عمّا ترشد إليه الآيات من تحذير للحيلولة دون الوقوع في شراك المنافقين والمترفين فيما يصنعونه ويرسمونه من أهداف، يعون تماماً أنها لن تتحقق إلا إذا وقع الإنسان في حبائل الشيطان، واستجاب لدعوة هؤلاء المترفين فيما يدعونه إليه من تحوّل ديني ومادي.

لا شكّ في أن علم أهل الترف بصناعتهم كان ولا يزال التزاماً قديماً بالعهد الذي قطعوه مع إبليس بأن يكونوا الأداة في التعبير عنه. وبما أن هذا هو خطّ الصراع في حياة البشرية، فإنّه لا يسع أهل الدعوة إلى الله تعالى إلاّ أن يكونوا أصحاب صناعة حق ووعي وإدراك بأن الباطل زاهق، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ب - العلماء وصناعة الفساد:

إذا كان معنى الصنع هو الإتقان في الفعل والإجادة فيه، على نحو ما بيّناه في المبحث السابق، فإنّ هذا الصنع لا يقتصر أمره على شأن معيّن من شؤون الاجتماع الإنساني، وإنما يشمل كل مجالات الحياة وميادينها، سواء في الدين، أم في السياسة، أم في الاقتصاد... الخ، وقد أشارت الآيات القرآنية إلى عمومية هذا الصنع في مجالات الحياة. كما أشرنا إلى بعض ما عرضت له الآيات في مجال

(١) سورة هود، الآية: ١٦.

السياسة والحكم والسلطة، إضافة إلى ما نرى أنه يعني حقيقة الصنع في الدائرة الاقتصادية، على اعتبار أن لكل شأن من شؤون المجتمع جهابذته وزبانيته ومترفوه.

وفي هذا المبحث سنحاول قدر المستطاع أن نطلّ على حقيقة أخرى مما عرضت له الآيات القرآنية، وهي حقيقة الصنع في المجال الديني، حيث نرى أن القرآن ينسب الصنع إلى أهل الكتاب الذين نسوا حظّاً بما ذكّروا به، وقد توعّدهم الله تعالى بأنه سوف ينبئهم بما كانوا يصنعون، ولعل أكثر ما يتجلّى هذا الصنع فيما ذكره القرآن عن العلماء والرهبان والأحبار، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1]. هذه الآية التي توضح لمتأمل بصير ومتدبّر عاقل، أن العلماء ليسوا بمنأى عمّا يتعرض له المجتمع الإنساني من مفاسد بسبب ما يؤدّيه الأحبار والرهبان من دور ووظيفة واعية وهادفة لصرف الناس عن حقائق الأمور، وإخضاعهم لمنطق الواقع وحقيقة ما ينطوي عليه من مخالفة لأوامر الله تعالى، في حين أن ما أنيط بهم من مهام، وخصّوا به من احترام وتقدير، إنما كان لهم بما يمثّلونه من امتداد للنبوّة، وهنا يأتي السؤال عن أسباب الذم لصناعتهم، فنسأل، هل لأنّهم تولّوا الظلمة؟ أم لأنّهم تخلّوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أم لكونهم خرجوا عن مبادئ الحق، واختاروا أن يكونوا صنّاعاً للباطل بما يعظون به الناس ويرشدونهم إليه كما يفعل المترفون..؟!

هناك أسئلة كثيرة تحيط بهذا الجانب من صناعة العلماء والأحبار، ولكن قبل تفصيل الكلام بالإجمال يمكن أن نعرض لحقيقة تعلمناها من أساتذتنا وعلمائنا في الحوزة والجامعة، وهي أن الراسخ في أذهان الناس منذ القدم هو ما تواتر من أحاديث عن الرسول ﷺ بأن العلماء أمناء الرسل، وورثة الأنبياء، وحصون الإسلام، وعلماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل، ومجاري الأمور بأيدي العلماء، هناك

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

أحاديث كثيرة حفظها الناس كما يُقال عن ظهر قلب، وقاموا بواجب الاحترام والإجلال للعلماء حيثما حلّوا بغضّ النظر عمّا تعنيه هذه الأحاديث في المضمون، كوننا نرى أنها خاصة بأئمة أهل البيت عليهم السلام وليس غيرهم، إلاّ أن الناس واحتراماً وطاعةً منهم لأهل البيت عليهم السلام قاموا بتأدية واجب الإجلال لكل عالم يحمل فكر أهل البيت عليهم السلام وفقههم، فإذا كان الحال كذلك، فلماذا نرى القرآن يتحدّث عن سوء صناعتهم؟ وكيف لنا أن نهتدي إلى مَن ذمّهم القرآن بسوء فعالهم وأقوالهم؟

نعم، بعيداً عن الحيرة والشك فيما قد يراودنا من أفكار وهواجس، يمكن لنا أن نهتدي إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال فيه: «**الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم**»[1]. وهذا الحديث يكشف لنا عن كل جوانب الذمّ للأحبار والفقهاء والرهبان، على اعتبار أن حب الدنيا، كما يقول علي عليه السلام، هو رأس كل خطيئة، ومَن يدخل في الدنيا لا يؤمن منه أن يُدخل الناس في الخطيئة، ويدفع بهم إلى الترف في الحياة، فكيف إذا كان العالم، أو الفقيه هو الذي يخوض غمار الدنيا وهو واعٍ لحقيقة ما يصنع، ولا نقول، ما يفعل، لما ذهبنا إليه من أقوال العلماء بأن كل صناعة فعل، وليس كل فعل صناعة.

ولهذا، فإنّ الفقيه يمتاز عن عامة الناس في كونه، بما هو عليه من صناعة فقه، عالماً بما يقول ويفعل، بمعنى آخر يمكن القول: إنّ وظيفة الفقيه أن لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن ينهى الناس عن قول الإثم وأكل السحت، فإذا لم يقم الفقيه بهذا الأمر حقّ القيام، وفعل خلاف ما هو مقتضى فقهه وعلمه فما يكون عليه حال الأمّة إذن؟

لقد بيّن الله تعالى في محكم كتابه أن دور العلماء أن يكونوا أمناء على ما

(١) انظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ، توفي (١١١١هـ)، ج١، ص٢١٦. وقا: الراوندي، فضل الله، كتاب النوادر، دار الحديث، قم، تحقيق سعيد العسكري، توفي (٥٧١)، ج١، ص١٥٦.

استحفظوا من كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

هناك جملة من الآيات تحمّل مسؤولية إضلال المجتمع للعلماء، وتحذّرهم العذاب الأليم، وتدعوهم إلى خشية الله تعالى دون الناس، وإلى الحكم بما أنزل الله تعالى، إلى غير ذلك مما أمروا به ودُعُوا إلى الامتثال له، فهم إذا لم يؤدوا هذا الدور، ولم يقوموا بالقسط، فإن المجتمع لا يلبث أن يسقط في أيدي المترفين، هذا إذا لم يتحوّل العلماء والفقهاء إلى أهل ترف يردّدون شعار: الناس أبناء الدنيا ولا يلام المرء إذا ما أحب أمه، إلى غير ذلك مما يسوّغ به كثير من العلماء اللحاق بالدنيا!

إنّ أهل البيت عليهم السلام لم يتركوا هذا الحال من دون بيان، فهذا الإمام الحسين عليه السلام وقبله أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: «**اعتبروا، أيها الناس، بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار، إذ يقول:** ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[3]، **وقال تعالى:** ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[4]. **وإنما عاب عليهم ذلك، لأنهم كانوا يرون من الظلمة بين أظهرهم**

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ – ٧٩.

المنكر والفساد، فلا ينهوهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ ويختم الإمام الحسين عليه السلام بالقول: لقد خشيت عليكم أيها المتمنّون على الله تعالى أن تحلّ بكم نقمة من نقماته، لأنكم بلغتم من كرامة الله تعالى منزلة فضّلتم بها، ومن يُعرف بالله لا تُكرمون، وأنتم بالله في عباده تكرمون.... وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسمعون»[1].

هذا هو الكلام الفيصل في معنى أن يكون العلماء على صناعة فاسدة في المجتمع من موقع إدراكهم ووعيهم بما يؤدّونه من أفعال، ويأمرون به من أحكام لإرضاء الظلمة والطواغيت وأهل الترف طمعاً بدنيا زائلة، أو رهبة مما يحذرون، فاختاروا أن يكونوا تبعاً للمترفين، بدل أن يكون قادة الناس بطاعة الله تعالى، وكم هو الفرق كبير أن يقول الله تعالى فيمن يسارعون إلى الإثم والفساد من عامة الناس «**لبئس ما كانوا يعملون**»، وبين أن يقول في العلماء والأحبار «**لبئس ما كانوا يصنعون**»، وقد بيّن الشيرازي هذا المعنى في تفسيره الأمثل فراجعه[2].

كما لا يخفى أيضاً، بإلمامة تاريخية، ما كان عليه العلماء بعد الرسل والأنبياء، وخاصة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حيث ظهرت طبقة من العلماء لا همّ لها سوى

---

(١) يُروى أن الإمام الحسين عليه السلام قال هذا الكلام في العام ٥٨هـ، وكانت المناسبة حجّ بيت الله الحرام، فاجتمع إليه بمنى أكثر من ألف رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أبنائهم والتابعين ومن الأنصار، حيث قام خطيباً ليبيّن للناس ما صنعه الطغاة من مظالم، طالباً إليهم لما يمثلونه عند الناس أن يقوموا بدورهم، وإبلاغ الناس، قائلاً لهم: «أنشدكم بالله إلاّ رجعتم وحدّثتم به من تثقون به».
انظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، معهد تحقيقات باقر العلوم، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، قم، ١٤١٥، ص٣٧٤.

(٢) نقل عن ابن عباس قوله: «إنّ هذه الآية أعنف آية وبّخت العلماء المتجاهلين لمسؤولياتهم الصامتين عن المعاصي، وقد أوضح السبحاني في سياق بيان الفرق بين قوله تعالى «يعملون» وقوله «يصنعون»، مبيناً أن العالم الذي لا يؤدّي واجبه، فهو يرتكب إثماً عن دراية وعلم وتفكير.
را: الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ج٣، ص٥٦٨.

الترف، كما يرى جعيّط في بحوثه التاريخية[١]، وكما يرى المؤرّخ إبراهيم حسن في تاريخه[٢]، والشهرستاني في الملل والنحل[٣]، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة[٤]، وليس غريباً عن هذا ولا بعيداً عنه أن يذكر المؤرخون أن الخليفة الثاني لما أحسّ بوفرة المال في خلافته منع الصحابة رضوان الله عليهم من الخروج للتجارة حتى لا تتكوّن منهم طبقة تملك المال في أيديها وتملك السلطان الأدبي على الناس فيحدث التميّز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهّل نفوسهم، لأنّ آفة المال الترف، والترفُ معدٍ ككل آفة، فحين لا يعالج ولا يوقف، فإنه ينتشر ولا بدّ، وحين يكون مبتدؤه في قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأنّ الحكام دائماً قدوة[٥].

هذا غيض من فيض مما يمكن أن يذكر في ترف العلماء في تاريخنا الإسلامي، كأولئك العلماء الذين ترسّموا خطى الأمراء والخلفاء، وجعلوا من الدين والإسلام معبراً لهم للفوز بالدنيا، كما بيّن إمام عبد الفتاح في كتابه الطاغية فيما ذكره عن الفقيه أبي يوسف في البلاط العباسي[٦]، وغيره من الفقهاء في العصر الأموي الذين سكتوا عن قتل الإمام الحسين عليه السلام، بل تجاوز الأمر بكثير من العلماء وأهل الفنّ إلى تسويغ ما جرى في كربلاء على أنه خروج على الحاكم الشرعي، إلى غير ذلك مما تجد له مثيلاً وشبيهاً في زمن الصحابة والتابعين، الذين تخلّفوا عن

(١) انظر: جعيّط، هشام، الفتنة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٥، ص٦٢.

(٢) حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م، ج١، ص٣٤١.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، م. س، ج١، ص٤٢.

(٤) الدينوري، ابن قتيبة، (ت٢٧٦هـ) تحقيق علي شيري، الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء، دار الأضواء، بيروت، ج٢، ص٢١٦.

(٥) را: قطب، محمد، كيف نكتب التاريخ، م. س، ص١٤٦.

(٦) را: إمام، إمام عبد الفتاح، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، م. س، ص٢٢٢.

الحسين عليه السلام بعد خطابه معهم في منى في موسم الحج[1].

إنّ كل ما تقدّم يمكن ملامسته إلاّ أنه يبقى قليلاً عند ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في وصف الفقهاء والعلما وما يهيئونه من حشو رثّ للإيقاع بالناس في شراك الشيطان والمترفين، يقول الإمام عليه السلام: «**ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند إمامهم الذي استقضاهم فيُصوِّب آراءهم جميعاً، وإلهُهُم واحد! ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعَصوه! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه.. أم أنزل الله تعالى ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه؟ والله تعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.. أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وأسقيت آخرها بكأس أولها...**»[2]. ذلك هو معنى أن يختلف العلماء، أو أن يجتهدوا مقابل النص ليكونوا من أهل الرأي في مخالفة الشريعة، كما بيّن مرتضى العسكري في معالم المدرستين[3]، إذ تحوّل العلماء في تاريخ المسلمين إلى أحبار ورهبان يكنزون الذهب والفضة ويصدّون عن سبيل الله تعالى، ويفتون بما يناسب الدنيا وأهل الأهواء، تقليداً واعياً وهادفاً لأولئك الذين تحدّثوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله مئات الآلاف من الأحاديث بعد أن منع الحديث خوفاً على القرآن، أو أن يشتبه الأمر على الناس، كما زعموا، وهذا ما أفرد له العلاّمة مرتضى باباً في تاريخه[4]، موضحاً

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، م. س، ص١٧٤.

(٢) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ٣.

(٣) العسكري، مرتضى، معالم المدرستين، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، ١٤٢٤هـ، طهران، ج٣، ص٢٣١.

(٤) انظر: مرتضى العاملي، جعفر، الإمام الحسن عليه السلام دار السيرة، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٩٢.

بما لا لبس فيه أن منع الحديث فسح في المجال أمام أحبار اليهود وغيرهم أن يملأوا فراغ الأمة الإسلامية في الحديث، كما رأى الشهرستاني في الملل والنحل[١]، والسبحاني في المذاهب الإسلامية[٢]، وغيرهم كثير ممن لا عدّ لهم ولا إحصاء من مؤرخين وعلماء تفسير وحديث، فهم يجمعون على أن تاريخ المسلمين لم يكن للعلماء أي دور في صناعته كما أراد الله تعالى، باستثناء العلماء الذين باشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، كما جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصف أهل العلم والتقى[٣].

إنه تاريخ إسلامي تعاضد فيه أهل صناعة الترف، مع أهل صناعة العلم الذين تسمّوا بالعلم وليسوا به، فكان مما لا يمكن لأمّة أن تحتمله من أزمات على مستوى الاعتقاد والسلوك! وذلك كلّه إنّما كان سببه الولاة والحكام والعلماء والأحبار، الذين وقفوا بالمرصاد للربّانيّين في كل زمان ومكان للحيلولة دون أن يكون لهم أي دور في صناعة التاريخ، ورغم ذلك كله، فإنّ القلّة القليلة من هؤلاء العلماء استطاعت أن تحدّ من صناعة الفساد، وأن تحمي الإسلام من سوء التحريف والتأويل، وأن تمنع من أن يحكم الطغاة باسم الشريعة والدين، بل كان لهم الدور الحاسم، كما في كربلاء وسائر الحركات الإصلاحية في تاريخنا، في هداية الناس الصالحين والمستضعفين إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من فعل إسلامي يرتكز إلى هُدى الله تعالى الذي هو الهدى، هذا فضلاً عمّا كان للعلماء والأتقياء من دور في إيصال

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، م. س، ج١، ص٨٢.

(٢) السبحاني، جعفر، المذاهب الإسلامية، دار الولاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١١.

(٣) قال الإمام علي عليه السلام: «اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته، وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلّون عدداً، والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون...، نهج البلاغة، م.س، قصار الحكم: ١٤٧.

الإسلام إلى محطات لامعة ومضيئة سمحت للكثيرين في كل زمان أن يتنفّسوا الصعداء، وأن يخرجوا من كهوف المذهبية والطائفية إلى رحاب الإسلام كما جرى في بلادنا؛ في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وفي لبنان وسائر الدول الإسلامية التي تشكّل امتداداً حقيقياً وحيوياً للمشروع الإسلامي كما جاء به الأنبياء والرسل من عند الله تعالى.

لقد أفلح ابن رشد في فصل المقال فيما ذهب إليه من ضرورة أن يكون الفقيه على صناعة حق وخير وإصلاح[1]، وهذا ما يفترض به أن يكون عليه من تقوى وإخلاص وطاعة، خلافاً لما هو عليه أكثر الفقهاء في كل زمان من تحول باتجاه الترف وملاذ الدنيا أسوة بالمترفين في تاريخ الإنسانية. وإذا كان من كلمة تُقال في خلاصة هذا المبحث، فإنّنا نرى سرّاً عجيباً فيما يظهره القرآن، سواء لجهة حاكمية ولاة الجور وما تتقوّم به صناعتهم، أو لجهة حاكمية الفقه والفقهاء، وما ينبغي أن يكونوا عليه من دور ووظيفة، ورؤية هادفة، إذ تبيّن الآيات، في كثير منها، أنّ الملامة في ما يغوص به الناس من ترف لا تقع على سواد الناس وحسب[2]، وإنما على الواعين من أحبار وعلماء ورهبان، لكون الذمّ لحق بهم لجهة كونهم أهل صناعة ووعي وإدراك لحقيقة ما يراد في إطار التحوّل الاجتماعي والسياسي للشعوب، فضلاً عن الديني، لأنّ مقتضى أن يكون الدين حيّاً، أن يستمر الصراع مع المترفين، لإلحاق الهزيمة بهم من قبل أتباع الأنبياء، ذلك أن في هزيمتهم تتحقق هزيمة الشيطان الديني والسياسي، الذي هو امتداد لمنطق إبليس وصناعته، هذا اللعين الذي أبى إلاّ أن يكون له من العباد نصيباً مفروضاً، والعباد هنا ليست تعني فقراء الناس وعامتهم،

(١) يقول ابن رشد: «فكم من فقيه كان الفقه سبباً لقلّة تورّعه وخوضه في الدنيا، بل أكثر الفقهاء كذلك نجدهم وصناعتهم العملية إنّما تقتضي بالذات الفضيلة العملية».

انظر: ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، بيروت، دار المشرق، ط١، ١٩٨٦، ص٣٤.

(٢) را: الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، م. س، ج٣، ص٢١٢.

وإنّما تعني العلماء والأحبار والرهبان وكل من يتخذ من الترف سبيلاً لمواجهة خط النبوة في تاريخ الإنسان، أو يجعل من الدنيا سبيلاً للفوز بالحياة والثروة والسلطة كما كان يفعل المنافقون دائماً، لأنهم مفردة حقيقية من مفردات الترف والمترفين، ولا شكّ في أن الكثيرين من الناس بعد انتصار الدعوة الحقّة كانوا يتحولون من كونهم مترفين وكافرين ومشركين، ليكونوا منافقين مترفين وفقاً للعقيدة ذاتها التي جُبلوا عليها، لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾[1].

وهكذا، فإنّ خلاصة هذا المبحث، وقدر ما استطعنا، أن نستجمع حقيقة الرؤية القرآنية التي كانت دافعنا إلى هذا المبحث، ولم نرد أن نسبر غور التاريخ والقصص والأحداث، أو الغوص في التجارب؛ بل أردنا أن نتّجه موضوعياً في تحديد أفق الرؤية النظرية القرآنية، في موضوع الترف والمترفين للتدليل على أن النص استوعب التجربة، وأعطى ضوءاً مشعّاً للباحثين كيما يتبصّروا بحقيقة الموقف الإسلامي على النحو الذي يؤهلهم لأن يكونوا على وعي بكل حدث، أو تجربة، لأنّ كل شيء نجده ملحوظاً في السنن التي يرشد إليها القرآن، ويجعلها مفتاحاً لكل تحوّل اجتماعي أو سياسي، أو حضاري، وقبل ذلك كلّه لكل تحوّل ديني، باعتبار أن الدين ليس مجرّد سنّة اجتماعية، وإنما هو دين الفطرة التي لا تبديل لها، ودين الشريعة والعقيدة والنظام الذي جاء به الأنبياء لهداية الشعوب وفك الإصر والأغلال عنهم، ليكونوا على بيّنة مما هو مراد بهم ولهم في خط الدين والحياة بعد أن مَنَّ الله تعالى على الإنسانية بمن يخرجها من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[2].

(١) سورة الحج، الآية: ٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٧.

الفصل الثالث

المترفون والمصير المشؤوم

تمهيد الفصل

المبحث الأول: وعد الله وحاكمية السنن

أ- النفس الإنسانية مبدأ التغيير

ب- المترفون وسنّة التدافع

المبحث الثاني: الامتحان بالبلاء وموت الأمم

أ- الامتحان بالبلاء والعذاب

ب- المترفون والعذاب المحتوم.

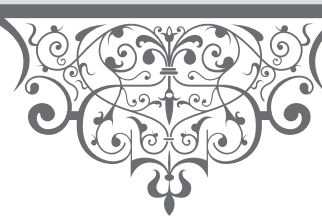

تمهيد الفصل

إنّ ما تقدّم في فصول ومباحث هذه الدراسة لم يشتمل في تفاصيله على أهم المباحث القرآنية، ونعني بذلك مبحث المصير المشؤوم الذي توعّد الله تعالى به المترفين. وإنّ أحداً لا يمكنه تجاوز هذا المبحث فيما لو أراد كمالاً لدراسته، وقد تأخرنا في الكلام حول مصير المترفين إلى الفصل الثالث قناعة منّا بأن ما أرشد إليه القرآن الكريم في مجال ألوان العذاب يحتاج دراسة مستقلة ترتكز إلى مقدمات كان لا بدّ منها في دراسة موضوع الترف من منظور قرآني.

ولهذا، نمهّد في هذا الفصل لدراسة هذا الموضوع بعد أن عرضنا لرؤية شاملة حول آيات الترف في القرآن في ضوء المنهجية الموضوعية ذات الاتجاه التوحيدي، على اعتبار أن الاستفادة من التجربة واستخلاص الرؤية في ضوء النصّ والتجربة معاً، يبقى السبيل الوحيد لاستيفاء هذا الموضوع حقّه. ولا شكّ في أن من يقرأ مباحث هذه الدراسة سيتوقف ملياً عند السبب الذي جعلنا نتأخر كثيراً في دراسة ما توعّد الله به المترفين من مصير، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]. ولكي لا نطيل الكلام في تمهيدنا هذا، فإنّنا نشير إلى أن سبب التأخير كان ضرورة استيعاب موضوع الترف في سياق رؤية شاملة للآيات. وبما أن هذه الآية تعطف مراحل التحوّل في الاجتماع الإنساني على نحو مذهل، فقد رأينا أن نؤخّر البحث فيها لتكون مجالاً للبحث في فصل مستقلّ يرتكز إلى مباحث الدراسة كلها، لعلّنا بذلك نوفّق إلى دراستها بالشكل الذي يسمح لنا باستخلاص النتائج المرجوّة منها، وخاصة أن الآية الآنفة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

الذكر كانت ولا تزال موضع دراسة وتدبّر عند الباحثين في الشؤون القرآنية، فهي آية، كما قلنا، تعطف مراحل التحوّل الإنساني بحرف الفاء، وترشد إلى الهلاك المحقق والمحتوم للمترفين في ضوء مراحل متعددة لا بدّ أن يمرّ بها الاجتماع الإنساني في كل زمان ومكان، وقد توقف المفسرون عندها ملياً واختلفوا حول تفسيرها، وقدموا نظريات متعددة بشأنها تراوحت بين أن يكون الهلاك والتدمير بسبب قادة الشرّ في هذه القرية، وبين أن يكون السبب هو المجتمع بكل أفراده، لما ذهب إليه مغنية في تفسير الكاشف، من أن الناس هم الذين يهيئون الظروف للمترفين كيما يستبدّوا بالناس، وهذا ما يؤدّي إلى أن يكون المجتمع بكامله عرضة للهلاك والتدمير[١].

المبحث الأول: وعد الله وحاكمية السنن

رأينا في مبحث هذه الدراسة أن السنن الاجتماعية المعاشة ليست وليدة الصدفة، والناس إمّا أن يكونوا على سنّة اجتماعية معبّرة عن الفطرة بما هي دين حق، وإمّا أن يكونوا على سنن دائرة في المجتمع منحرفة عن الحق، تبتغي السبيل عوجاً، كما أفاد الطباطبائي في تفسيره[٢].

كما أشرنا أيضاً إلى أن وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر والاستخلاف في الأرض، ليس مجرد وعد لا شروط له ولا ظروف، وإنّما هو وعد مشروط. فإذا أراد الإنسان النصر، فلا بدّ أن يتوفّر على شروط النصر، باعتبار أن النصر هو حق طبيعي للإنسان، وليس حقاً إلهياً[٣] ولا بدّ أن يتوفّر الإنسان على الشروط كيما يكون له الانتصار، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[٤]. ولا شكّ في

(١) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج٥، ص٣١.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج١٠، ص١٨١.

(٣) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي في المدرسة القرآنية، م.س، ص٦٥.

(٤) سورة محمد، الآية: ٧.

أن نصر الله تعالى، كما يقول الشهيد الصدر، إنما يكون بالالتزام بما أمر الله به ونهى عنه، التزاماً حقيقياً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، والصبر والتقوى في الآية يفيدان أن يكون الإنسان حيث أمره الله تعالى، وأن لا يكون حيث نهاه، والكينونة هنا لسنا نقصد بها مجرّد الوعي بها، بل هي كينونة وعي وإدراك وتحوّل إيجابي في النفس والواقع معاً، لأنّ قوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ...﴾ إنما هو ناظر إلى الصبر على المكاره، والقيام بحقّ الله تعالى، والمجاهدة في سبيله في جميع مجالات الحياة، هذا إضافة إلى ما تعنيه التقوى من التزام نفسي وروحي، ومن توطين للنفس على مكاره الدهر، وقبل ذلك على الطاعة لله ورسوله على النحو الذي يؤدّي بالإنسان والمجتمع إلى أن يكون تعبيراً حقيقياً عن هذه الطاعة الضامنة للحياة الإنسانية السليمة، كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

وإذا كان وعد الله تعالى يتحقق في سياق ما يأتي به الإنسان من طاعات والتزامات عملية، فإنّ ذلك، كما تقدّم الكلام، لا يكون من خارج السنن التاريخية والاجتماعية الحاكمة لحركة الإنسان وتحوّلاته الاجتماعية والسياسية، وقبل ذلك الدينية، لأن الدين هو أيضاً له معنى حاكمية السنن فيما لو جاء في مجال وعي الإنسان لذاته وفطرته فيما هي عليه من ثبات في صيرورة التحولات الاجتماعية، وهذه السنّة، كما يرى الصدر، ليست مقولة حضارية مكتسبة يمكن الاستغناء عنها، بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تبديل لها[2].

وهكذا، فإنّ معنى أن نبحث في وعد الله تعالى وحاكمية السنن، أن نتعرّف إلى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٢) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، م. س، ص٩٨. يرى الشهيد الصدر أن الدين نفسه سنّة موضوعية من سنن التاريخ، فليس الدين تشريعاً فقط، وإنّما هو سنّة من سنن التاريخ أيضاً، وهو فطرة الله تعالى ولا تبديل لها، وهذا الدين كفطرة لا يمكن انتزاعه من الإنسان، كما لا يمكن الاستغناء عنه.

الأسباب والحقائق التي يعرض لها القرآن في ميدان التجربة البشرية كيما يكون ممكناً الاحتكام للنصوص في دائرة إطلاق الأحكام، لأنّ القرآن فيما يعرض له من سنن في ميدان التاريخ، هادف إلى تعليم الإنسان وإرشاده إلى ضرورة الاعتبار والاكتشاف في آن معاً، وإلاّ فما يكون معنى أن نعرض للسنن التاريخية والاجتماعية، ولا يكون بالإمكان الاستفادة منها أو التعبير عنها؟ ومن هنا، نرى أن هذا البحث لا يكون مجدياً إلاّ إذا تمكّنّا من ملامسة السياقات القرآنية للآيات كخطوة أولية في طريق دراسة السنن، وخاصة السنّة المشروطة التي عرض لها القرآن وأوضح للإنسان سبل الاستفادة منها، ولعلنا لا نخطئ القول أن البداية كانت ولا تزال في ضوء الرؤية الموضوعية من النفس الإنسانية التي هي أساس كل تحوّل إنساني في ميادين الحياة والاجتماع؛ وإنّ مما يدلّ على هذه الحقيقة، هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

أ - النفس الإنسانية مبدأ التغيير:

إنّ التدبّر في آيات الله تعالى يكشف لمتأمل بصير أن كل ما عرض له القرآن في مجال الترف والمترفين، لم يأتِ به في سياق متجرّد عمّا هو عليه الإنسان في ذات نفسه، وقد خاطبه الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[2]، وهذا يدلّ على أن حقيقة الكدح لا تكون من خارج النفس التي ألهمت فجورها وتقواها. فإذا كان المترفون قد استغرقوا في الثروات والأموال وما كان عليه الآباء من قول وفعل، فذلك ليس دليلاً إلاّ على أنهم قد استغرقوا في وضع نفسي، وحالة نفسية، جعلوا المال والثروة تعبيراً عنها. أما في الحقيقة والجوهر فهم إنّما فعلوا ذلك فجوراً وتأكيداً على ما في أنفسهم من مفاهيم مغلوطة عن الكون والحياة والإنسان، ولهذا نجد أن القرآن يخاطب هؤلاء الذين أترفوا، ويدعوهم إلى ضرورة العودة إلى

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

أنفسهم ليدركوا أن مرض القلوب والنفوس، هو الذي حوّلهم عن كونهم بشراً أصحّاء طيبين، فجعل منهم أناساً مترفين مجرمين ينظرون إلى الثروة والمال والنفوذ في الواقع نظرة أساسية ونهائية لقيمة الحياة! فلو أنهم اتعظوا بتقلبات الحياة ومصائر الأمم لما آل أمرهم إلى أن يكونوا مقلدين لآبائهم متخذين منهم شعاراً للحياة، ومبدأً للاعتبار، وهذا كله إنما كان منهم، كما ذكرنا، بسبب الشيطان الذي حال بينهم وبين النفوس والقلوب، فكان ذلك سبباً رئيسياً في الإضلال لهم، فأوردهم مورد الهلكة، وهذا ما يمكن أن نستفيده من سياقين في القرآن الكريم، الأول هو سياق قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾[1].

أما السياق الثاني، فهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[2].

نلاحظ أن السياق الأول في الآية المباركة جاء بلحاظ القوم في التعبير، لأن الآية، كما نرى، ترسم ملامح للأمة، وليس لفرد من أفراد المجتمع، هذا فضلاً عمّا ترشد إليه من قانون وسنّة حاكمة في ميدان التاريخ، مفادها أنه لا تغيير في الواقع إلاّ بعد أن يكون الإنسان قد تغيّر داخلياً، وهذا ما عبّر عنه السيّد الصدر بالمحتوى الداخلي للإنسان، حيث أكّد على أن العلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان، والبناء الفوقي التاريخي للمجتمع هي علاقة تبعية، وعلاقة سبب بسبب[3]، فما لم يتغيّر المحتوى الداخلي، فإنّ المجتمع سيبقى تعبيراً عمّا هو عليه الإنسان، فإن كانت نفسه فاجرة، فلا بدّ أن يكون المجتمع تعبيراً عن الفجور، وإنّ أدنى تأمّل في مبحث الشهيد الصدر، يظهر للباحث أن الشهيد اهتمّ بالعلاقة بين المحتوى الداخلي

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٣) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، م. س، ص١١٥.

والمحتوى الخارجي، ولكنه لم يلتفت إلى سياق الآية ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ..﴾ هذا السياق الذي يُفيد مدى العناية الإلهية بالإنسان في طريق تحوّلاته الاجتماعية والسياسية، ولو لم يكن للسياق هذا المؤدّى، لما استطعنا أن نحكم على حركة التاريخ وفاقاً للسنن الحاكمة لكل ميادينه، وخصوصاً أن الآية جاءت بذكر القوم ولم تأتِ بذكر الإنسان كفرد، وهذا ما عقّب عليه علماء التفسير[1]، ولكنهم لم يلحظوا المعنى الذي نذهب إليه بقولنا: إنّ حركة التاريخ لا بدّ أن تتغيّر وفاق هذه العناية الإلهية المحيطة بالإنسان، التي مكّنته في كثير من التحولات من الانتصار على المترفين[2]، كما أنه سياق يفيد معنى الحفظ الذي مؤدّاه أن يتحصّل للنفس من الإلهام ما يجعلها في كثير من الأحيان واعية لحركتها الذاتية، فتتحوّل داخلياً، ويكون من آثار هذا التحول تغيّر وتبدّل الواقع من حال إلى حال، وإذا كانت النبوة قد واجهت تمرّداً هائلاً من المترفين في بداية كل دعوة، فإنّ التحول، وفق عناية الحفظ الإلهي، كان يتم بالارتكاز إلى هذا الحفظ من أمر الله تعالى، الذي كان غالباً ما يفجّر المكنون الإنساني ليكون في نصرة النبوة، لما ذهبنا إليه في بحوثنا السابقة من أن الإنسان لو لم يكن على وعي بالوحي، لما

(١) جاء عن الأئمة عليهم السلام في تفسير الآية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ أبي كان يقول أنّ الله قضى قضاءً حتماً لا ينعم على عبد بنعمة فسلبها إيّاه قبل أن يحدث العبد ما يستوجب بذلك الذنب سلب تلك النعمة، وذلك قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، في ضوء هذه الرواية نفهم معنى أن تحدث الأمة أو القوم، وقد رأى الصدر هذا المعنى بقوله: «ومن الواضح أن المقصود من تغيير ما بالنفس، تغيير ما بأنفس القوم...، التفسير الموضوعي، م. س، ص١١٥.

(٢) روي عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فصار الأمر إلى الله تعالى. انظر البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ط٤، ١٩٩٢، ص٢٨٤. قوله صار الأمر إلى الله تعالى بلحاظ أول الآية وآخرها، آخذاً بالاعتبار لوحدة السياق بين المعقبات، وإذا أراد الله بقوم سوءاً، ويبقى السؤال ما هو سرّ توسّط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ...﴾ بين أول الآية وذيلها، وهذا ما استفدنا منه سرّ العناية التي ضمنت التحول الإيجابي مع الأنبياء، والله أعلم.

كان ممكناً أن يقبل الوحي[١]، ولهذا جاء السياق الثاني في آية البقرة ليوضح هذا المدلول بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٢]، وهو سياق يُفيد حقيقة الارتكاز إلى فطرة الإنسان بما هي دين ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، كما أنه مرشد إلى وجوب إعمال البصيرة، كما أفاد الكاشاني في تفسيره[٣]، والخروج عن تقليد الآباء، بإعمال العقل للاهتداء إلى ما هو مرتكز فيه ومنطوٍ عليه، ومن هنا جاء الاستفهام للتوبيخ، لأنه يقتضي كما يقول الطبرسي، ما الإقرار به فضيحة عليه، ومعناه لو ظهر لكم أنهم لا يعلمون شيئاً مما لزمهم معرفته أكنتم تتبعونهم أم كنتم تنصرفون عن اتباعهم، فإذا صحّ أنه يجب الانصراف عن اتباعهم، فقد تبيّن أن الواجب اتباع الدليل دون اتباع هؤلاء[٤]، ولو لم يكن في ارتكاز النفس والعقل اتباع الدليل لما جاء التوبيخ لهم على الانصراف عنه، ما يؤكّد لنا أن فائدة السياق تكمن هنا أن يخرج هؤلاء القوم بأنفسهم إلى أنفسهم، قبل أن يخرجوا إلى أفق التاريخ والاجتماع، باعتبار أن ظاهر الآية يُفيد أن المعطيات لا بدّ أن يكون لها تحولات، وإن كان البعض قد فهم منها مجرّد الحفظ والعناية من خلال الملائكة، ولا شكّ في أن هذا الفهم لا يتنافى مع ما ذهبنا إليه أنه حفظٌ مسبوق بالعناية بما هو عليه الإنسان في ذاته، بحيث يكون له الحفظ من الداخل والخارج معاً، وقد أعقب هذا التعقيب وفي سياق واحد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وهنا نسأل، هل لأحد أن يرشدنا إلى معنى هذا التغيير فيما لو لم يكن آتياً في سياق التعقيب،

(١) جاء في كتاب كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق، أنّ الله تعالى لا يدعو إلى سبب إلاّ بعد أن يصوّر في العقول حقائقه، وإذا لم يصوّر ذلك لم تتسق الدعوة ولم تثبت الحجّة، وذلك أن الأشياء تألف أشكالها وتنبو عن أضدادها، فلو كان في العقل إنكار الرسل لما بعث الله عزّ وجلّ نبياً قط.
انظر: الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٣) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج١، ص٢١١.

(٤) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، م. س، ج١، ص٤٧٠.

الذي هو خير دليل على ارتكازية النفس وما تتجلّى به من تحوّلات داخلية وخارجية؟ وقد جاءت النبوة لتعزز من فرص القوم في تحقيق هذا التغيير كمقدمة لتغيّر الواقع وفقاً لأوامر الله تعالى للخروج من الظلمات إلى النور...

إذن، وكما بيّن العلامة الصدر في رؤيته[١] والعلامة مطهري في المجتمع والتاريخ[٢]، والعلاّمة اليزدي في معارف القرآن[٣] وغيرهم كثير من القدامى والمحدثين، أنّ سنّة التغيير تبدأ من داخل النفس بلحاظ المعطى الفطري فيها، والذي استحق أن يكون موضوعاً للخطاب أولاً وللحفظ ثانياً، وهذا ما نعتبره رؤية قابلة للنقاش، لأنه من غير الممكن تجريد السياق في الوقت ذاته الذي نرى فيه حقيقة واقعية وعملية، بحيث نجرّد المعقبات في الآية[٤]، ثم نلحظ الإطار العملي فيما تنطوي عليه الآية من تغيير رغم أن السياق واحد، ولا بدّ أن له مدلولاً عملياً في إطار وحدة الهدف.

وعليه، فإنّ ما نودّ التركيز عليه في معنى السياق، هو محورية التغيير وضرورة أن يبدأ من النفس، باعتباره فريضة إسلامية تحتم على المجتمع الإسلامي وعلى

---

(١) الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، م. س، ص١١٥.

(٢) مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨، ص١٧٥.

(٣) انظر: اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، تعريب الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج٤، ص٢٤٩.

(٤) إنّ سياق المعقبات في الآيات المباركة يرشد إلى تحول خارجي يعضد التحولات النفسية والعقلية للإنسان، وبما أنه لا يمكن تجريد الآية على نحو يستفاد منه حصر التغيير بالمحتوى الداخلي، فكذلك لا يمكن تجريد المعقبات أيضاً، لأن الله تعالى من خلال هذه المعقبات قد يغيّر حال الناس من السيّئ إلى الأحسن، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ...﴾، ما يُفيد أن للمعقبات دوراً فيما يراد بالإنسان وله، باعتبار أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، وهذا ما يذهب إليه اليزدي في معارف القرآن من أن الله تعالى لا يغيّر النعمة إلاّ إذا فقد الناس الاستحقاق لها، وأما النقمة، فقد يغيّرها الله من دون تغيير من قبل الناس لمصالح يعلمها هو ومن جملتها الإملاء والاستدراج.
را: معارف القرآن، م.س، ج٤، ص٢٤٩. والذي رأينا أنه قابل للنقاش هو هذا الذي يراه بعض العلماء عن تغيير النقمة. وهنا السؤال: هل للمعقبات دور في ذلك!!؟.

كل مجتمع أن يلحظ ذاته فيما تكون عليه من تحوّل نفسي وعقلي، ومن ثم لحاظ الواقع في ضوء هذا التحول ليكون المجتمع تعبيراً عن هذه النفس فيما ألهمت من تقوى، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1]، إنّما يرشد إلى قدرة التعقل على احتواء صيرورة كل تحوّل داخلي في ذات الإنسان، وقد مَنَّ الله تعالى على الإنسان بالدين بما هو شريعة ليعضد الدين بما هو فطرة ليكونا شيئاً واحداً يعبّر الإنسان من خلالهما عن كلّ تحوّلاته الاجتماعية والإنسانية، بحيث تكون هذه التحولات تعبيراً عقلانياً يلحظ الأسباب والنتائج التي تحوّل الواقع عن كونه محكوماً لسنن اجتماعية دائرة في المجتمع، ليكون مجتمعاً هادفاً ومتحوّلاً وفقاً للسنن الإلهية الحاكمة، فلا يخالف المجتمع مقتضيات هذه السنن، بل يكون له استقامة النفس في التعبير عن هذه السنن وقبل ذلك في الامتثال لها لكونها سنناً ثابتة لا مفرّ من الاحتكام لها والعمل بمقتضاها، باعتبار أن الفارق كبير جداً بين أن تجرى هذه السنن على المجتمع وهو غائب عن نفسه، ومأخوذ بفجوره، وبين أن تجرى هذه السنن عليه وهو متعقل لصيرورة تحولاته، ولهذا خاطبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وقد تقدّم العقل على الهداية لكونه شرطها، فإذا لم يكن الإنسان عاقلاً، فلا تكون له قدرة اتباع الدليل كما قال الطبرسي، بل سيبقى مقلداً تجرى عليه السنن وفاقاً لما هو عليه في ذات نفسه من جهل وتقليد وترف لا طائل منه سوى أن يتحول الانسان اجتماعياً وسياسياً ودينياً، ليكون تعبيراً عن هذه الحالات التي تخرجه عن التأثير بالواقع، وتدفع به إلى أن يكون منفعلاً به، ومكذباً لنفسه فيما آتاه الله من نعم ظاهرة وباطنة، بحيث يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2]. وعلى هذا النحو يمكن لنا أن

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

نفهم مؤديات السنن الأخرى التي عرض لها القرآن في سياق التعبير النفسي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تستعرض السنن من خلال مصاديقها، وقد وفى الشهيد الصدر في استعراض مدلولات هذه السنن في ميدان التاريخ والاجتماع البشري.

لا شكّ في أن الغاية من عرضنا هذا، ليست الاستغراق في دراسة السنن، وإنما التركيز على مبدأ التغيير للارتباط الوثيق بين موضوع بحثنا وبين هذا المبدأ، باعتبار أن المترفين إنّما جُعلوا في مقابل النبوّة لكونهم لم يهتدوا إلى هذه السنن جهلاً واستخفافاً وتمرّداً، بل والتزاماً بما اتخذوه وامتدوا به من أهواء في مقابل أمر الله تعالى، وقد بيّنّا سابقاً أن المترفين هم امتداد لعقيدة ومنطق إبليس، وليسوا مجرّد أشخاص لهم آراء واجتهادات مقابل النبوة...!؟

ولهذا، فقد اخترنا هذا المبحث للتأكيد على أن تغيير النفس هو ما ينبغي أن يؤسس عليه في تحولات المجتمع الإنساني، وهذا يقتضي بذل الجهد الإنساني لتغيير ما بالنفس من أوهام ومغالطات ومبادئ فاسدة، وأخلاق ذميمة من خلال إحياء العقل واتباع الدليل الذي جاء به الأنبياء لإثارة دفائن العقول، وليس لخلق حالات عقلية ونفسية معدومة، وأراد لها الأنبياء أن تتحقق ابتداءً[2]، وقد قال علي عليه السلام في هذا المعنى: «**إنّ الله بعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن**

(١) سورة الجن، الآية: ١٦.

(٢) إن دور النبوة يقتصر على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفطرة إلى البرهان، وذلك كله إنّما يكون من خلال إثارة دفائن العقول، وقد أشرنا آنفاً إلى ما ذهب إليه الشيخ الصدوق من أنه لو كان في العقل إنكار الرسل لما بعث الله تعالى نبيّاً قط، ومثاله على ذلك أن الطبيب يعالج المريض بما يوافق طباعه، ولو عالجه بدواء يخالف طباعه أدى ذلك إلى تلفه.
را: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، م.س، ص١٦.

العقول...»[1]. وهذا ما نرى أنه يخدم وجهة نظرنا فيما ذهبنا إليه من أن تغيير النفس يقتضي أن يتحول الإنسان في ذات نفسه في ضوء ما أثاره الأنبياء للإنسان في العقل قبل الواقع. وإذا كان المترفون قد عاندوا الحق، واختاروا الباطل والعناد والتحقير للأنبياء والأولياء، فذلك إنّما كان منهم لكونهم سدّوا منافذ العقل واحتكموا إلى فجور أنفسهم فيما ارتكزوا إليه من وحي شيطاني أدّى بهم إلى أن يكونوا على فساد في أنفسهم قبل واقعهم! وهذا كله، كما يرى علماء التفسير، كان ناشئاً من اختيار واعٍ وإرادة وعزيمة، ولم يكن مجرّد جهل أو سفه، أو إكراه على سلوك هذا الطريق، وقد استطاع الإنسان في تاريخه، وإلى أي دين انتمى، أن يؤسس لتحوّلات كبيرة جداً في واقعه من خلال الالتزام بالمنهج الذي جاء به الأنبياء بالارتكاز إلى قوة النفس العاقلة التي سمحت بإجراء تغييرات وتحولات هامة في بنى الاجتماع البشري، وكما يقول محمد يوسف: «**إن السعي لتغيير الواقع والارتقاء به، بأي حال، لا يعني عدم التسليم بقدر الله تعالى، بل يمثّل تطلعاً إلى قَدَر الله تعالى بعمل من شأنه التمكين للأمة في الأرض. فالمسلم القوي الأمين ذاته هو بمنزلة مقوّم من مقوّمات قضاء الله وقدره الغالب الذي لا يردّ**»[2].

مما تقدّم نستطيع القول: إن الإنسان يمكّن في الأرض، ويكون له الاستخلاف فيها، ويبدّل من بعد خوفه أمناً، كما أفادت آية وعد الله تعالى للمؤمنين[3]، إنّ كل ذلك إنّما يكون للإنسان في ظلّ حاكمية السنن، وليس من خارجها، وكذلك المترفون هم إنّما يكون لهم الهلاك في الأرض والتدمير بما كسبت أيديهم وفقاً للسنن ذاتها، لأنّ الله تعالى قضى وقدّر أن تكون للإنسان إمكانية العمل والتحوّل، يدفع بعضهم

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١.

(٢) يوسف، محمد، التمكين للأمة في ضوء القرآن، القاهرة، دار الشروق، ص٢٠٥.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

بعضاً، بحيث يهتدي إلى سبل الله تعالى فيما يُحدثه لنفسه من تحوّلات اجتماعية وسياسية وإنسانية تؤهّله لأن يكون مقوماً من مقومات القضاء والقدر، فيرتكز إليه في تمكين ذاته بما هيّأه الله تعالى وأهله له في مسيرة الحياة، وهذا كله إنما يكون مرتكزه النفس الإنسانية، فهي إن اتبعت الأهواء والترف كان لها ما أرادت، وإن اتبعت العقل وما هداها الله تعالى إليه، أيضاً كان لها ما أرادت، لأنها هي مناط الدفع والتدافع بين أن تكون مهبطاً لإبليس، أو موئلاً لآيات الرحمة، ولا بدّ أن يكون لهذا الدفع أثره وتعبيره في حياة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، وبين دفع وآخر يكون للإنسان قضاءه وقدره، وهذا يعني أن القضاء والقدر ليسا أمراً خارجياً يدفعان بالإنسان ليكون رهينة الدفع الخارجي، الذي لا أثر للإنسان فيه، بل الإنسان ذاته هو المقوّم لحقيقة الدفع والتدافع في الحياة، فهو، أي الإنسان، إن اختار هدى الله تعالى كان له ما أراد ومن دفع وتحوّل فيما يرضي الله تعالى؛ وإن اختار سبيل الشيطان، كان له ما أراد أيضاً على نحو ما بيّنا سابقاً.

وعليه، فإن معنى أن يختار الإنسان، أن تكون له إرادة الفعل في تحقيق ذاته في صيرورة الحياة، وبهذا يتحصّل للإنسان أن يكون، كما أفاد محمد يوسف، مقوماً أساسياً في حركة التمكين القائمة على النفس وما ترتكز إليه من هدى أولاً، وعلى الدفع والتدافع فيما يختاره الإنسان من تحوّلات نفسية وموضوعية ثانياً، وفي جميع الأحوال يبقى للإنسان أن يختار في عملية الصراع المرتكزة أساساً على سنن الخلق والوجود، وعلى ما أراده الله تعالى في صيرورة التحول الإنساني منذ بدء الخليقة، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]. وهذا مرشد إلى أن الدفع النفسي والعقلي للإنسان سابق على أي دفع

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

آخر في الحياة، وما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]، إلاّ دليل على أن الإنسان قد سُبق بدفع نفسي مرتكزه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾، أما مَن لم يتبع هداه، فلا بدّ أن يكون له دفعه المختلف تماماً عن هدى الله تعالى، وقد سبق لإبليس أن اتبع هدى نفسه فأضلّه الله وكان له تعبيره في الحياة، ودفعه في ما اختاره المترفون على طريقه وفي سبيله، فكان لهم ما أرادوه أيضاً من ضلال وإضلال وإفساد في الأرض...

ب: المترفون وسنّة التدافع:

تبيّن لنا في مبحث العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين، أن هذه العلاقة مضطردة، وهي تمثّل سنّة تاريخية ثابتة لا محيص عن الامتثال لها. كما يتظهّر لنا أيضاً من السياق القرآني أنها تستبطن معنىً دفعياً، بين الأنبياء والمترفين، وقد بيّن الله تعالى في آيات الدفع، التي يصحّ القول فيها أنها نظرية الدفع القرآني، لكونها تشير في ظهورها إلى حقيقة تاريخية مفادها أن البشرية منذ آدم هي في دفع مستمر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

وكما نلاحظ أنّ سياق الآية الأولى،، هادف إلى بيان الحكمة من مشروعية الجهاد، وهي الدفع لأهل الكفر بأهل الإيمان حيث تمّت الهزيمة وقتل داود جالوت، إضافة إلى ما يلمح إليه السياق من فضيلة الإيمان بلقاء الله تعالى، وهذا الاختبار للأمة فيما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

يكون لها من استعداد للحرب، سواء أكانت كثيرة أم قليلة... أما سياق الآية الثانية، فقد بيّن الله تعالى فيه وعد الله الصادق بالدفاع عن المؤمنين، ومشروعية الدفاع والجهاد في مواجهة أهل الباطل، حيث علّل الله تعالى حقيقة هذا الدفع مبيّناً لحكمة الآية بالقتال، وداعياً إلى التمكن في الأرض لإقامة أسس الدولة الصالحة من خلال إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

إذن، الآيات في سياقها العام في السورة، وفي السياق الخاص فيما تقدمها من آيات وتأخر عنها، يفيد ظاهرها أنها تدعو إلى قتال أهل الباطل وكل مَن يعتدي ليس على المسلمين وحسب بل على سائر الناس، باعتبار أن الآيات القرآنية لا تلحظ واقعاً خاصاً لما ذهب إليه علماء الأصول بأن المورد لا يخصص الوارد، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد جاءت روايات كثيرة تلحظ هذا الجانب الخاص في ظهور الآيات، ولكن الآية الثانية فيما تفيده من صوامع وبيع ومساجد تتجاوز الخصوصية إلى العالمية بحيث نفهم أن القرآن يؤسس لأطروحة عالمية ترتكز إلى نظرية الدفع، وهذا ما يدفعنا كثيراً إلى التأمّل فيما جاء في كتاب البرهان في تفسير القرآن الذي يشير فيه إلى جملة من الروايات عن أئمة أهل البيت هي في مجملها تؤكّد على أن الدفع هو ذو معنى خاص كما ينقل عن أبي عبد الله، يقول: «**إنّ الله يدفع بمن يصلّي من شيعتنا عمّن لا يصلّي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا...**»، إلى غير ذلك من الروايات التي جاءت تارة بمعنى الصلاة وطوراً بمعنى الزكاة[1]، وإذا تجاوزنا ذلك كله، فإنّ أقصى ما يمكن الذهاب إليه، هو ما رواه الزمخشري في ربيع الأبرار عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إن الله ليدفع بالمسلم الصالح نحو مائة ألف بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية**»[2].

(١) را: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن. م. س، ج٣، ص٩٣. ج١، ص٢٣٨.
(٢) م. ع، ص٢٣٨.

إنّ الذي نراه في ضوء ما تخلص إليه الروايات، وهي صحيحة السند، هو أن ما تضمّنته هو وجه من وجوه الدفع، لأنّ الآيات جاءت بكلمة الناس، ولا يمكن رفع اليد عن ظهور الآيات إلاّ بقرائن تفيد التخصيص، بحيث يكون الأمر مخصوصاً بالمؤمنين، أو بالمسلمين، ولا شكّ أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يتحدّثون إلى الناس بحسب أفهامهم لتقريب معنى الدفع إليهم، والذي نراه حقيقة هو أن الدفع مثلما أنه يمكن أن يكون في الدائرة الخاصة بالمسلمين، أو بالشيعة، كما هو لسان الروايات، فكذلك يمكن أن يكون في الدائرة العامة، لكون الدفع هو من الحقائق القرآنية الكبرى، وخصوصاً إذا ما لحظنا سياق آية الحجّ، (الآية: ٤٠) التي جاءت على ذكر البيع والصوامع والمساجد لا لتعلّل أو تبيّن وجه الحكمة من القتال وحسب، بل لأجل أن تظهّر المعنى العالمي لنظرية الدفع من خلال التركيز على الحقيقة الدينية الغالبة في تاريخ الإنسان، إضافة إلى التأكيد على حقيقة الدين في كل التحولات البشرية، ويمكن لنا أن نفهم أيضاً أن الآية تظهر حقيقة الصراع والدفع بأنه قائم فعلاً بين أهل الأديان من جهة، وبين المترفين من جهة ثانية، ومن هنا نفهم مغزى أن تأتي الأديان لتقابل بين الأنبياء والمترفين لتجعل من صراعهم سنّة تاريخية ثابتة مع ما يكون لكل منهما من امتدادات، فلا يكون الصراع بينهما مجرّد صراع، بل يكون دفعاً حقيقياً ينتصر فيه مشروع الإيمان على مشروع الكفر، الذي يجسّده المترفون في كل زمان ومكان.

غاية القول: إنّ ظهور آيات الدفع يُفيد أن الإنسانية في حاضرها ومستقبلها، وفيما شهدته من صراعات وتحولات كانت ولا تزال محكومة لنظرية الدفع، تماماً كما كانت في ماضيها. وهنا يمكن لنا أن نتلمّس حقيقة أخرى في سياق الآيات وظهورها، وخاصة آية البقرة التي يفيد ظاهرها أنه لولا الدفع لفسدت الأرض، في حين أن سورة الحج قالت أنه لولا الدفع لفسد الدين، وبرأينا المتواضع هذا الانتقال يمثل تحويلاً حقيقياً لوجهة الصراع ويُعطي أبعاداً أخرى تتجاوز مجرّد الدفع بين

الناس، ليكون بين مشروعين في الحياة هما مشروع النبوة ومشروع الترف، دون أن يُلغي هذا التحول حقيقة الدفع في المجال الإنساني بدءاً من التجمّع الصغير وانتهاءً بالعالم كله، على اعتبار أن الدفع لا يكون بين أهل الإيمان وحسب، بل قد يكون بين أهل الإيمان وأهل الكفر، كما أنّه قد يكون بين أهل الكفر أنفسهم، بدليل ما نشهده اليوم على الساحة العالمية من دفع وتدافع بين المترفين وأصحاب الشركات الاقتصادية، فضلاً عن المؤسسات العسكرية واللوبيات الحاكمة في العالم.

والحق يُقال: إنّ الثورة الإسلامية في إيران التي قادها الإمام الخميني قدس سره، ونحن تربّينا في أجواء هذه الثورة، ما كانت لتصل إلى أوج انتصاراتها الإسلامية والثقافية والعسكرية لولا أنها استطاعت أن تتقن لعبة الأمم، ومقتضيات نظرية الدفع الإنساني رغم كل ما تعرضت له من أخطار وحروب، وهذا يؤكّد لنا أن ظهور الآيات القرآنية كاشف عن حقيقة عالمية تتجاوز الذين نزل فيهم القرآن إلى العالم كله، وهي فيما أشارت إليه من أديان، بل فيما جاءت به من تقديم للبيع والصوامع على المساجد، تؤكّد على استيعاب النظرية الدينية في الآية القرآنية، وتعطي للدين بما هو فطرة وشريعة بُعده العالمي في مواجهة المترفين، باعتبار أن سنّة التدافع، كما يرى العلاّمة الطباطبائي وغيره من علماء التفسير[1]، هي الركيزة الأساسية لمجابهة الفساد في الأرض، وما على المسلمين وسائر أهل الإيمان إلاّ أن يقوموا بالأسباب التي تؤهلهم لأن يكونوا منتصرين في هذا الصراع ضد المترفين، وكما بيّنا في الفقرة السابقة، أنّ أوّل شروط الانتصار هو إثارة دفائن العقول، ومكامن النفوس، بحيث يتظهّر الإنسان، لا على أنه إنسان خاص له رسالة خاصة، وإنما بما هو إنسان عالمي مهيّأ لأن يخوض غمار التجربة وفقاً للسنن الثابتة في ميدان

(١) يقول الطباطبائي: لولا هذا الدفع لم يقم أصل الدين على ساقه وانمحت جميع آثاره، لأن المعابد هي الشعائر والأعلام الدالة على الدين المذكرة به والحافظة لصورته في الأذهان.
را: تفسير الميزان، ج١٤، ص٣٨٧.

التاريخ، وقبل ذلك وفقاً لما يرتكز إليه من هُدى خصّه الله تعالى به، وجعل عالميته وإنسانيته رهناً له، وهو الهدى الذي أخبر الله تعالى الإنسان به منذ اللحظة الأولى التي أسكنه فيها هذه الأرض وجعله خليفة له فيها.

إن الإنسان بدأ من هناك رسالته العالمية رغم تدرّجه في حقب التاريخ، ورغم تعدد شرائعه، وتفاوت منازله في عالم الوجود، حيث اختير لهذا الإنسان أن يكون عالمياً، وهو لم ولن يستوي على جوديّ حقيقته، إلاّ إذا نجح في امتحان التحوّل التاريخي والانساني من خلال حقيقة الدفع التي تحفظ له أن يكون متميزاً في صيرورة وجوده، ذلك هو معنى أن يكون الإنسان على هُدى من نفسه وربه، إنساناً يخوض غمار التجارب، ويدفع بالتي هي أحسن، ويتكافل مع أخيه الإنسان أيّاً كان هذا الإنسان، ويأخذ بالسنن إلى حيث ينبغي أن يكون في دينه ودنياه...

وهكذا، فإنّ معنى أن يتحوّل الدفع، في جوهره، إلى دفع ديني، أن يكون الدين حاضراً في كل تحوّل إنساني، خلافاً لما يدّعيه البعض من أن الدين أخرج الدفع عن كونه إيجابياً، فجعل منه دفعاً سلبياً ومنحرفاً عن الجادة الوسطى، إذ أنّ هذه الدعوة لا تستقيم فيما لو علمنا أن المترفين هم الذين يأخذون بالدين والناس إلى التدافع السلبي من خلال إفساد الناس وتشويه المفاهيم، وتحريف الحقائق، فضلاً عن سوء استخدام الثروة والمال. إنهم فيما هم عليه، قديماً وحديثاً، من عقيدة ومنطق ورؤية للكون والحياة والإنسان يؤسسون لكل ما من شأنه أن يخرج الإنسان عن سبيله الحق، ليكون أسير أطروحتهم ولسان حالهم فيما يريدونه من قول أو فعل، وهذا ابتلاء حقيقي أرشد إليه القرآن فيما هدى الإنسان إليه، داعياً إيّاه إلى التبصّر بمآلات الحياة، وإلى أن يعتبر بمن مضى من الأمم والشعوب، لعله فيما يسترشد به يندفع إلى تأسيس حياته وفقاً لما أراده الله تعالى، بحيث يكون له موقعه في مواجهة المترفين، الذين يتدافعون للنيل منه، وقد أظهرت التجارب أن الدفع الحقيقي لهؤلاء جسّده الأنبياء بأفضل ما يكون التجسيد بدليل ما جاء به القرآن

من تمييز بين موقع النبوة وموقع المترفين، إذ فيه ما يؤكّد أن الأنبياء قد انتصروا رغم كل ما تعرّضوا له، وهذا بذاته دليل على أن خط الأنبياء سيكون له الانتصار في تاريخ الإنسان وميدان التاريخ. كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

المبحث الثاني: الامتحان بالبلاء وموت الأمم

لقد بسط القرآن الكريم الكلام في مصائر الأمم، وأرشد إلى حاكمية السنن، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

إنّ الآيات كما يرى علماء التفسير ترشد إلى وقائع سنّها الله تعالى في الأمم المكذّبة، ويريد لعباده أن يعتبروا بما جرى على السابقين، بحيث يعقلوا عن الله تعالى، ويهتدوا إلى سبيله من خلال القرآن الذي أنزل بالحق ونزل به، كما هو مفاد آيات سورة الإسراء[3]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ..﴾ كاشف عن أن مصائر الأمم المكذّبة حتّمتها أعمال الناس، فكان لهم من الخير والشر ما اختاروه لأنفسهم، وقد تراوحت مصائرهم، كما بيّن القرآن، بين أنواع من البلاء في الدنيا بما اختبروا به من نعم ظاهرة وباطنة، وبين أن يكونوا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية بما عصوا وكانوا يعتدون، لأن الله تعالى ليس بظلاّم للعبيد، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

(١) سورة يوسف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧ – ١٤٢.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾، ناظرٌ إلى حقيقة ما آلت إليه أحوال السابقين الذين جاءتهم الأنبياء، ولكنهم كذّبوا، فأخذوا بما كسبت أيديهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، وما على الذين جاءهم الرسول ﷺ إلاّ أن يسيروا في الأرض، وأن ينظروا، لأنهم ليسوا بمنأى عن أن يكون لهم المصير ذاته، فيما لو كذّبوا، وكان منهم ما كان من أسلافهم. أما كيف نعرف ما حلّ بهم من العذاب وصنوف البلاء، فذلك مما ترشد إليه تجارب الأمم وتحولات البشريّة في تاريخها. إذ قد يتوهّم البعض أن السير في الأرض للاعتبار، إنّما يكون باستحضار التاريخ والتجارب، ساهياً عن أن القرآن وإن لم يكن كتاب تاريخ وتفاصيل حياة، إلاّ أنه استوعب التجربة، واستحضر الأمم من تاريخها وتجاربها لتكون حاضرة في تحولاتها ومصائرها أمام مَن خاطبهم القرآن، ولهذا روي عن الأئمة عليهم السلام، وعن الصادق تحديداً أنه قال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾، قال عنى بذلك انظروا في القرآن، فاعلموا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم وما أخبركم عنه[2].

إنّ قوماً من الأقوام، أو أمة من الأمم، ليس بمنأى عن أن يكون لها المصير ذاته، لأن الناس يمتحنون فيما أنعم الله به عليهم، وفيما أمرهم به ونهاهم عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ..﴾، وقد أشرنا في المبحث السابق إلى أن سنن التاريخ ثابتة لا تستثني أحداً، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

إنّ الله تعالى يُعلّمنا أن الدنيا هي دار امتحان وابتلاء، تجري على اللاحقين كما جرت على السابقين، وإذا أراد الإنسان أن يكون له مصيراً مختلفاً، فليكن له عملاً مختلفاً، لأن حالة الصراع قائمة ومستمرة، وقد أرشد الله تعالى إلى السبل

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.

(٢) را: الكاشاني، الفيض، م.س، ج١، ص٣٨٥.

الكفيلة بإخراج الإنسان من الظلمات إلى النور فيما بيّنه له من حقائق، وفيما جاءه من تعاليم وأحكام ووصايا من شأن اتباعها الفوز بسعادة الدارين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

أ - الامتحان بالبلاء والعذاب:

ننطلق مما مهّدنا له في هذا المبحث للتأكيد على أن التمحيص للأمة والابتلاء لها فيما جاءها من تكاليف، وفيما تعيشه من سنن وتحوّلات في الاجتماع والسياسة، هو ما يعمّ الناس جميعاً، وليس مخصوصاً بأمّة دون أمة، بل هو مما خُلق الإنسان لأجله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

لقد خلق الإنسان ليكون ممتحناً في هذه الدنيا، وقد زيّنها الله تعالى له ليبلوه بما آتاه[3]، وخاصة الإنسان المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي تخصّ المؤمنين وتجعلهم في كثير من الأحيان، في غاية الامتحان، وذلك كله إنما يكون لهم ليمحّصهم ويتخذ منهم شهداء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

يقول أمير المؤمنين علي: «**ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء، ووحوش الأرض لَفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسلُه أولي قوة في عزائمهم،**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢ - ٣.

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً... ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرامُ وعزّة لا تُضام، ومُلك تمدّ نحوه أعناق الرجال وتشدُّ إليه عُقَدُ الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم عن الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الأتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختيار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل»[1].

وهكذا، فإنّ ما أريد للإنسان أن يكون عليه، هو أن يكون ممتحناً بالشرّ والخير فتنة، كما قال علي عليه السلام: «**إن الدنيا لم تكن لتستقرّ إلاّ على ما جعلها الله عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد**»[2]، وقد أُريد للأمة، كل أمّة أن تكون في امتحان في الحياة بما تذخر به من نعم وزينة وأمر ونهي إلى غير ذلك مما خصّ به الإنسان دون غيره، باعتباره خليفة لله تعالى، ولو أن الإنسان سمع عن الله تعالى وعقل عنه فيما أمره به ونهاه عنه لما استبدّت به الأهواء، واشتدّت به البلواء، بل خرج عن أمر ربه، فكان أسير كفره ورهن حتفه. وهذا ما سبق أن عرضنا له في مبحثي سنّة التغيير وسنّة التدافع، حيث بينّا أن الإنسان ممتحن في دار الدنيا، ومأخوذ بخياراته وإرادته، إن شاء اهتدى وإن شاء كفر، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[3]، ومن هنا كان للإنسان هذا الامتحان فيما خُلق له، وليس عليه سوى الخضوع للسنن الحاكمة في ميدان التاريخ والحياة، ليكون ممن فازوا ويفوزون بسعادة الدنيا والآخرة.

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، الخطبة: ١٩٢.
(٢) م، ع، الكتاب: ٣١.
(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.

إن الغاية من مبحثنا هذا هي التمهيد لمبحث أسباب موت الأمم وما للمترفين من دور في ذلك، باعتبار أنّ المترفين هم أيضاً ممن امتحنوا بما أتاهم الله تعالى، وقد ابتلي المؤمن بالكافر، والأنبياء بالمترفين، وهذا ما ركّز الإمام علي عليه السلام عليه كثيراً في مواعظه وإرشاداته، فقال: «**إن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها ليعلم أيُّهم أحسنُ عملاً، ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أمرنا، وإنّما وُضعنا فيها لنُبتلى بها، وقد ابتلاني الله بكَ، أي معاوية، وابتلاك بي، فجعل أحدنا حجّة على الآخر، فعدوتَ على طلب الدنيا بتأويل القرآن...**»[1].

إذن، محور البحث هو حقيقة ابتلاء المؤمنين بالمترفين الذين توعّدهم الله تعالى بالتدمير والهلاك، كما سنرى في الفقرة (ب) من هذا البحث، ولكننا أردنا التمهيد بهذا المبحث لنؤكد على أن حقيقة البلاء ليست خاصة بأمّة دون أخرى، وإنّما هو ممّا يعمّ؟، إذ ما من أحد إلاّ وهو مبتلى، إما بفقر، أو بغنى، فالابتلاء هو سنّة من سنن الحياة، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ ..﴾[2].

إن مما تجدر الإشارة إليه في هذا المبحث، هو أن الابتلاء لا يكون في الدنيا لمجرّد الابتلاء، فهو له آثاره الدنيوية قبل أن يكون له نتائجه الأخروية من جزيل الثواب، أو أليم العذاب، وقد أُريد للأمم أن تمتحن بالأنبياء والأولياء، وعلى ذلك جرت السنن، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ ..﴾[3].

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن من شروط التمكين لأمة من الأمم أن تنجح

(١) الإمام علي عليه السلام، م. ع، الكتاب: ٥٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

في امتحان البلاء، سواء في نفسها، أم في تجاربها، وهذا ما عرضنا له في سنن التغيير والتدافع، إذ ما لم تتغيّر الأمة في نفسها وتدفع الشرّ بالخير، وتقوم بالأسباب التي تؤدّي بها إلى النجاة، فإنّها لن تحقق الفوز في امتحانها، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1]، ناظر إلى أنه من شروط التمكين أن تكون الأمة، أي أمة، واعية لدورها، وقائمة بشروطها، ومستحقة لما خصّها الله تعالى به، بمعنى آخر، يمكن القول: إن الابتلاء أمر أساسي في استحقاق الأمة للتمكين في الأرض، فمن سنّة الله تعالى أن لا يمكّن أمة ما إلاّ بعد أن يختبرها. والقرآن، كما نعرف، حافل بمشاهد ونماذج الاختبار للأمة، وخاصة لبني إسرائيل، وسائر الشعوب والقبائل التي أخرجها الامتحان عن كونها مستحقة للتمكين، كأولئك الذين قيل لهم ادخلوا الأرض المقدّسة، فقالوا لن ندخلها ما داموا فيها، وكانت النتيجة التيه في الأرض أربعين سنة، أو كأولئك الذين امتحنوا بالنهر مع نبيهم، وسقطوا في الامتحان قبل أن يخوضوا معركة الحق، و﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾، في حين قال آخرون ممن آمنوا بالله حقاً، وظنّوا أنهم ملاقوا الله تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

وهنا بيت القصيد في مبحث الابتلاء، والله مع الصابرين، كما قال تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[3].

ومفاد هذا الصبر أن يكون الناس على قدر المسؤولية فيما يقومون به من أعمال، وعلى مستوى الوعي بالأسباب التي تؤهلهم وتهيّئهم للقيام بشروط النصر، لكون النصر حق طبيعي، وليس حقّاً إلهيّاً لكل الناس كيفما كانوا، وحيثما كانوا، بل هو

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

مشروط بأسبابه، وأول هذه الأسباب أن يعي الإنسان أنه في ابتلاء فيما يواجهه من أحداث، وفيما يؤدّيه من مسؤوليات، ولا شكّ في أن ارتكاز ذلك كله على الصبر في المحن، لأن الابتلاء يوقظ الفطرة، ويميز الخبيث من الطيّب، وبه يُغاظ الأعداء، وأهم من ذلك كلّه هو مفتاح النصر، ولهذا نلحظ كيف أن القرآن يركّز في كثير من الآيات على الامتحان للأمم مقسّماً أنواع البلاءات، بين بلاء مُبين، وبلاء تربية، وبلاء استحقاق، وبلاء عقوبة، وبلاء تحقيق، مقابل الفوز المبين، والفضل المبين، والفوز العظيم، كما هو الشأن فيما عرض الله تعالى له في امتحان أنبيائه، فقال في حق سليمان: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، وقال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

إنّ الأمّة التي سقطت في الامتحان، واستحقت العذاب، سواء الجزئي، أم عذاب الاستئصال، فهي إنّما عرض لها ذلك بما كسبت، ولأنها لم تأخذ بأسباب النجاة، وهناك أمم أخرى كان البلاء عقوبة لها بما كان منها من كفر بنعم الله تعالى، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكما قال بعض العلماء: «**إن الله يختبر عباده بالمسار ليشكروا، ويختبرهم بالمضار ليصبروا، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر**[3]، **ولهذا قال** عليه السلام: «**مَن وسع عليه دنياه، فلم يعلم أنه مُكر به فهو مخدوع عن عقله**»[4].

إذن، الإبتلاء هو حقيقة ارتكازية، في هدفيّة الخلق، وما من أحد إلاّ وله نصيب من هذا الامتحان، إذ هو من السنن الحاكمة في ميدان التحولات الاجتماعية والإنسانية، فهو، أي الابتلاء، إما أن يكون لتكميل الغير، وإمّا أن يكون لتكميل

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

(٣) انظر: صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، دار النصر، بيروت، ١٩٩٤، ص٣٢.

(٤) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م. س، قصار الحكم: ١٣١.

المبتلى، كبلاء آدم كان المنظور منه تكميله بخروجه عن الجنة لتوسعة نسله وجنوده، وأما إبليس فإن الله ابتلاه لتكميل آدم وذريته، فإنه أتم سبب لتكميل بني آدم»[1]، وفي ضوء هذا يمكن لنا أن نفهم معنى الابتلاء في دائرة التكميل، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[2].

وكيف كان، وتأسيساً على ما تقدم، يمكن لنا أن نحصر وجوه الابتلاءات فيما عرضت له الآيات، فنقول: إن البلاء له وجوه كثيرة، أوجزها صالح العضيمة في بحثه القيّم مصطلحات قرآنية على الشكل الآتي: بلوى اختبار، وبلوى استحقاق، وبلوى رفعة، وبلوى عقوبة، وبلوى تحقيق»[3]، ولكل بلوى من هذه الابتلاءات مثالاً ونموذجاً من تجارب الأمم، إلاّ أنّ الذي يعنينا من هذا كلّه أن نعرف إنّ ابتلاء المؤمنين بالمترفين هو مما يمكن التركيز عليه في هذا المبحث، طالما أن القرآن قد عرض لهذا النموذج من البلاء في مسيرة البشرية منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، ولعل البلاء العقوبي هو النموذج الأبرز في آيات الله تعالى، باعتبار أن عذاب الاستئصال قد لحق بأمم كثيرة لم تعتبر بما وعظها به الأنبياء والأولياء،

---

(١) عضيمة، صالح، مصطلحات قرآنية، م. س، ص٣٣.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣١.

(٣) يعرّف العلماء البلوى على الشكل الآتي: بلوى الاختبار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. أما بلوى الاستحقاق، المراد بها تطهير الأولياء عن أدناس الطبيعة، وأنجاس الهوى، وأرجاس الشيطان، فإن حق الولاية أن لا يرضى الولي لوليِّه إلا الطهارة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

أما بلوى العقوبة، فذلك إنّما يكون للخذلان والحرمان ونقص الإيمان كبلاء إبليس بالعصيان، وبلاء بلعام بالمخالفة وانسلاخه عن الحق.

أما بلوى الرفعة، كالبلاء الموكل بالأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل،، كابتلاء إبراهيم عليه السلام بمحاججة نمرود، ومعاندة عبادة الأصنام، ورميه في النار، ويبقى بلوى التحقيق، وهي تكون ليحقق به صدق المدعين وكذبهم، فالمؤمن الصادق يثبت في التجربة، ويزداد بيّنة، والمنافق يكشف أمره عند نفسه وعند الناس، وتقوم الحجّة عليه. هذا ملخص لما يعمّ من البلوى في دائرة الامتحان والاختبار، عصمنا الله من الزلل، ووفقنا لما يحبّ ويرضى، إنّه وليّ التوفيق.

واختارت أن تكون امتداداً لإبليس في الضلال والإغواء والتكبر والاستعلاء، هذا فضلاً عمّا تميّزت به هذه الأمم من فواحش ظاهرة وباطنة، ما أدّى بها إلى أن تكون مستحقة للعقوبة، بعد أن لم يؤثر فيها الوعظ والإرشاد، وبعد أن لم تتربَّ بما ابتلاها الله تعالى به من عقوبات، وخصّها به من معجزات، فكان لها ما كان من تدمير وهلاك، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]. وهذا ما سيكون موضوع بحثنا في الفقرة التالية، طالما أننا اخترنا أن يكون هذا المبحث خاتمة لما عزمنا عليه في مباحث هذا الكتاب.

ب: المترفون والعذاب المحتوم:

إذا كان القرآن الكريم قد كشف لنا أن مصائر الأمم والشعوب تراوحت بين الرحمة والعذاب بحسب ما كانت عليه كل أمة وكل قوم من التزام وطاعة، أو كفر وعصيان. وإذا كان القرآن قد هدانا إلى هذه المصائر فيما أمرنا به من سير ونظر، سواء في القرآن، أم في التجارب، فإنّه يبقى علينا أن ننظر فيما يعرضه لنا القرآن عن العذاب المحتوم للمترفين، وخاصة عذاب الاستئصال الذي أصاب به الكثير من الأقوام، سواء بالغرق، أم في الخسف، أم في الريح، أم في الحجارة من سجّيل، إلى غير ذلك مما لا تخلو منه سورة من ألوان العذاب...

لقد بيّن القرآن الكريم في كثير من الآيات أن الهلاك والتدمير إنّما كان يصيب الأمم بسبب ظلمها الاجتماعي والسياسي، وليس بسبب تعدّيها على حقوق الله تعالى، أو بسبب الشرك والكفر، وغير ذلك مما توعّد عليه تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2].

إنّ مدخلنا لبحث هذا الموضوع الذي يتعلق بعذاب المترفين، هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]. وقبل أن نعرض لآراء الفقهاء والمفسرين لهذه الآية وما اختلفوا فيه بشأنها، لا يسعنا إلا أن نلحظ بعض السياقات القرآنية المتعلقة بالهلاك للقرى، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[2].

هناك جملة من الآيات التي يتظهّر لنا من سياقاتها المختلفة أن الله تعالى ما كان ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، بما يؤدونه من إنصاف لبعضهم البعض، على ما أفاد الكاشاني، بأنه لم يهلكهم بظلم منه لهم أو منهم لأنفسهم كشرك ومعصية يقول: «**وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوق نفسه دون حقوق عباده، ولذا قيل: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم**»[3]، كما أنّ الله تعالى لم يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، لكونهم لم يُنبّهوا برسول، وإذا كانوا قد أهلكوا، فذلك إنّما كان لهم بعد إلزامهم الحجّة وقطع المعذرة، فكان الهلاك لهم بما ظلموا وكذّبوا الرسل، وهذا ما يُفيده سياق الآية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ ..﴾. ومن هنا، يمكن لنا أن ندخل إلى ما يعنيه عذاب وتدمير المترفين في سورة الإسراء، التي تفيد الهلاك والتدمير للمترفين بما عصوا وفسقوا. إذ نلاحظ أن سياق الآية لا يختلف عمّا جاءت به الآيات الآنفة من سياق مؤدّاه أن عاقبة الظلم والتكذيب للرسل هو الهلاك والتدمير، وهذا ما أكّد عليه سياق آية الإسراء، حيث قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.

(٣) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج١، ص٣٨٥.

(٤) سورة الإسراء، الآيات: ١٥ – ١٧.

لا شكّ في أن كبار العلماء والمفسرين قد استغرقتهم هذه الآية، بل ذهبت بهم في كل اتجاه، ولا نقول ذهبوا بها، لأنّ الذي يُحيّر العقول والألباب هو إعجاز القرآن، وليس فهم البشر وما يؤولوا إليه من تفسير وتأويل، اللهمَّ إلاّ أن يكون المُحيّر هو التخبّط فيما رآه العلماء من تشريع وتكوين في هذه الآية المباركة، فهذا الطوسي في التبيان[١]، والطبرسي في البيان[٢]، والطباطبائي في الميزان[٣]، والزمخشري في الكشّاف[٤]، واليزدي في معارف القرآن[٥]، ومغنية في الكاشف[٦]، وشُبّر في تفسيره[٧]، والكاشاني في تفسير الصافي[٨]، هذا فضلاً عمّا ذهب إليه ابن حجر في فتح الباري[٩]، والصدر في السنن التاريخية[١٠]، وغيرهم كثير ممن لا يعدّ ولا يحصى من المفسرين الذين لا يمكن الاطمئنان لكثير مما ذهبوا إليه في تفسير الآية المباركة، لكن الذي يهمنا في هذا المبحث، هو أن سياق الآية يُفيد أن الآية مفسّرة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١١]، وهي مفسّرة أيضاً بالآية الآنفة التي أشرنا إليها بأن الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا ..﴾[١٢]،

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج٦، ص٤٥٩.
(٢) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، م. س، ج٦، ص٢٣٤.
(٣) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٣، ص٥٩.
(٤) الزمخشري، تفسير الكشاف، م. س، ج٢، ص٦٢٨. يقول الزمخشري في معنى الآية: «إذا دنا وقت هلاكهم ولم يبقَ زمان إمهالهم إلاّ قليل، أمرناهم «ففسقوا»، أي أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز، لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً، وجه المجاز أنه صبّ عليهم النعمة صبّاً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي، واتباع الشهوات...»..
(٥) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، م. س، ج٤، ص٢٦٩.
(٦) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، م. س، ج٥، ص٣٠.
(٧) شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، م. س، ج١، ص٣٥٨.
(٨) الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، م. س، ج١، ٣٨٥.
(٩) ابن حجر، فتح الباري، (ت ٨٥٢)، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ص٢٩٩.
(١٠) الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية، م. س، ص٨٥.
(١١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(١٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.

باعتبار أن الناس مأمورون بالطاعة لله تعالى ورسوله، فإذا كذّبوا وعصوا وظلموا حقّ عليهم القول بالعذاب، واستحقوا التدمير والهلاك. وعليه، فإنّ الأمر بالآية هو ضد النهي كما أجمع عليه كثير من المفسرين، ولا ندري من أين جاء الزمخشري بالمجاز في الآية، وقد يكون ملفتاً أيضاً ما ذهب إليه اليزدي لجهة القول بأن الأمر في هذا هو الأمر التكويني، أي إنّ إرادة الله تعالى تعلّقت بأن يقوم المترفون بالفسق، وهي إرادة تكوينية وليست تشريعية[1]، وقد يكون التفسير الأفضل لهذه الآية هو ما ذهب إليه الشيرازي في تفسير الأمثل، إذ رأى لها تفسير واحد[2]. والحق يُقال: إن لكل عالم من العلماء الأجلاّء اجتهاده ومسوّغاته اللغوية والدلالية، ولكن تبقى للسياق دلالاته أيضاً، فإذا كان الله تعالى قد أوضح بما لا لبس فيه أن العذاب والتدمير إنّما يكون للمترفين بما يلجأون إليه من معاصي وتكذيب للرسل وإفساد في الأرض، فهل يبقى من تأويل للأمر في الآية غير أن يكون أمراً بالطاعة بالمعنى التشريعي، لأنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا بالفسق، وقد رأى الطبرسي أن الوجه الأقرب للصواب هو فهم الآية على الأمر الذي هو ضد النهي، وقد جاء ذكر الإرادة على وجه المجاز والاتساع، وإنّما عنى به قرب الهلاك والعلم بكونه لا محالة، كما يقال إذا أراد العليل أن يموت خلط في مأكله ومشربه.. وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل وجه، ومعلوم أن العليل والتاجر لم يريدا في الحقيقة شيئاً لكن لما كان من المعلوم من حال هذا الهلاك ومن حال ذلك الخسران حسن هذا الكلام واستعمل ذكر الإرادة لهذا الوجه، ولكلام العرب إشارات واستعارات ومجازات لأجلها كان كلامهم في الغاية القصوة من الفصاحة[3]. كما أن العلاّمة الطباطبائي قد ألمح إلى هذا المعنى بالتركيز على أن ظاهر السياق في الآيات أن يكون المراد بالتعذيب التعذيب الدنيوي

(١) اليزدي، معارف القرآن، م. س، ج٤، ص٢٦٩.

(٢) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، م. س، ج٧، ص٢٥٥. يقول: هناك تفسير واضح للآية، يمكن تبيانه من مؤدّى ظاهرها، وهو أن الله لا يعاقب أحداً بالعذاب قبل أن يتمّ الحجّة عليه.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، م. س، ج٦، ص٢٣٤.

بعقوبة الاستئصال، ويؤيده برأيه خصوص سياق النفي، ويستدلّ على كون الإرادة هي من المجاز والاتساع بما لا يؤدي إلى القول بالإرادة التكوينية[1]، وهو يؤيّد ما ساقه الطبرسي بأن العليل إذا أراد أن يموت، والسماء إذا أرادت أن تمطر، فلا يريد الموت بحقيقة معنى الإرادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾. ولعله يمكن الاستفادة مما ذكره الراغب في مفرداته فيما ذكره عن أن المشيئة من الله تعالى هي الإيجاد، ومن الناس الإصابة، والمشيئة من الله تقتضي وجود الشيء، ولذلك قيل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والإرادة منه لا تقتضي وجود المراد لا محالة، ألا ترى أنه قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، ومعلوم أنه قد يحصل العُسر والتظالم فيما بين الناس..»[2].

نعم، هناك كلام قوي جداً للعلامة اليزدي في تلخيص الموقف من آراء العلماء والمفسرين، إذ يرى أن كثيراً من الآراء لا تنسجم وظاهر الآية، وقد أسس لموقفه هذا على مبحثه في الإرادة، مبيناً أن كل ما يقع في العالم من طاعة وعصيان، وكفر وإيمان فهو متعلق بالأمر التكويني والقضاء والتقدير الإلهي، ولا مانع عنده من

(١) لقد فنّد الطباطبائي الكلام، واستوعب كلام الزمخشري فيما ذهب إليه من قول بالمجاز في الآية، فقال: «ويمكن أن يُراد به الإرادة الفعلية، وحقيقتها توافق الأسباب المقتضية للشيء وتعاضدها على وقوعه، وهو قريب من المعنى الذي أشار إليه من أنه إذا دنا وقت هلاكهم، وحقيقة هذا تحقق ما لهلاكهم من الأسباب وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية، كما قال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأما الأمر التكويني فعدم تعلقه بالمعصية من حيث أنها معصية أوضح بجعله الفعل ضرورياً يبطل معه تعلقه باختيار الإنسان ولا معصية مع عدم الاختيار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، نعم يختم الطباطبائي كلامه بالإشارة إلى متعلق الأمر، هل هو الطاعة، فإذا كانت الطاعة كان الأمر بحقيقة معناه وهو الأمر التشريعي، وكان هو الأمر الذي توجه إليهم بلسان الرسول الذي يبلغهم الأمر، وإن كان متعلق الأمر هو الفسق، كما رأى الزمخشري، كان الأمر مراداً به الإكثار في إفاضة النعم عليهم وتوفيرها على سبيل الإملاء والاستدراج، وتقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول وينزل عليهم العذاب... را: الميزان، ج١٣، ص٥٩.

(٢) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، م. س، ص٢٧٨.

ذلك لأنه يتحقق عن طريق اختيار الأفراد أنفسهم، ولا يؤدّي إلى إجبارهم عليه»[1].

ونحن لا نرى بدورنا أن العلاّمة اليزدي قد أضاف جديداً، وإن كنّا لا نوافقه على ما ذهب إليه في الظاهر من الآية، أو في السياق الذي جاءت فيه، لأنه بناء على مبتناه في هذه الإرادة يمكن لسائل أن يسأل، إنّه ما دام الأمر متعلقاً بالتكوين، فإن الكلام فيه قد يعود إلى آدم عليه السلام وإبليس، فهما أيضاً لم يخرجا عن متعلقات هذا الأمر التكويني وما قضاء الله وقدره، باعتبار أن الله تعالى، كما يرى اليزدي، هو الذي جعل هذا النظام وأوجد المترفين، ولذلك استطاعوا أن يكرّسوا جهودهم للفسق والفجور.. والنظام الأحسن، برأيه، يقتضي وجود الناس للامتحان والاختبار[2]، وعليه فإنّ معنى أن يكون الأمر تكوينياً، أن نسلّم بأنّ الله تعالى شاء لهذا العالم أن يكون على ما هو عليه، وهذا صحيح لقول علي عليه السلام: «**ما كانت الدنيا لستقرّ إلاّ على ما جعلها الله تعالى من النعمة والابتلاء والجزاء في المعاد**»، وهذا صحيح، لأن الله تعالى هو الذي شاء وقضى وقدّر، لكنّ الكلام ليس هنا، وإنّما هو فيما تفيده الآية، بحيث نسأل، هل الإرادة فيها تكوينية أم تشريعية؟ طالما أن إرادة الله تعالى لا تقتضي وجود المراد لا محالة كما بيّن الراغب؟!

ثم إنّه ما معنى أن نخرج عن سياق الآية فيما جاءت فيه من أن شرط العذاب والاستئصال، كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، هو أن يكذّب الرسل وتظهر المعاصي فيما بين الناس ولا نقول معصية الله تعالى لما ذهب إليه العلماء من أن الظلم الذي يؤخذ به الناس هو ظلمهم لبعضهم البعض، وليس بسبب

(١) يفسّر اليزدي كلامه بأن بعض الأشياء التي تعلق بها الإذن التكويني تتمتع بإذن تشريعي أيضاً، كالأفعال الواجبة والمستحبة والمباحة الصادرة عن الإنسان. أما أفعاله المحرّمة والمخالفة للقانون فلها إذن تكويني، لكنها محرومة من الإذن التشريعي.

را: معارف القرآن، م. س، ج١، ص٢٦١.

(٢) م. ع، ج٤، ص٢٦٩.

ظلمهم لله تعالى، كما بيّن الصدر في السنن التاريخية[1]، فالسياق، كما يرى اليزدي نفسه، سواء قبل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ أو بعده، كما في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ إنما يفيد استحقاق هؤلاء للعذاب بسبب ارتكاب الفسق والفجور، فما يكون معنى الأمر التكويني بلحاظ كون الآيات تتحدّث عن أمر تشريعي واضح لا لبس فيه، وقد استدرك اليزدي في نهاية بحثه بالقول: «**وعلى كل حال، فسواء كان الأمر تكوينياً أم تشريعياً، فحقّ على أهل القرية القول بتحقيق العذاب، كما قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2].

وكيف كان، فإن الارتباك يبدو واضحاً في مذاهب القوم، وكان يمكن للمفسرين أن لا يأخذوا الآية في اتجاهات شتّى، وأن يكتفوا بالإشارة إلى أن المترفين هم امتداد لعقيدة ومنطق إبليس، وقد وُعِظوا وأُرشِدوا إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من هدى من خلال الرسل والأنبياء، ولكنهم اختاروا أن يكونوا امتداداً لإبليس، وهذا مما قضاه الله وقدّره، ولسنا نعارض ما ذهب إليه اليزدي، ولكنه لم يوضح معنى وعلاقة هذا الأمر بالتكوين طالما أن العذاب للمترفين ناشئ من كونهم فسقوا فحقّ عليهم القول، وإذا كان هذا الأمر من متعلقات الأمر التكويني، فإنّه يمكن أن يقال أيضاً بأن سياقات الآيات كلها قد تُلحظ في سياق الجعل التكويني الذي

(١) يقول الصدر: «إن الآية تستبطن سنّة تاريخية بلغة القضية الشرطية عندما ربطت بين أمرين، بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله، فمتى ما وجد الشرط وجد الجزاء، وهذا شكل من أشكال السنن التاريخية التي عرض لها القرآن، وهذا المعنى لحظه الطباطبائي بقوله: إنّ النفي دال على الاستمرار في الحاضر الظاهر في أنه كانت السنة الإلهية في الأمم الخالية الهالكة جارية على أن لا يعذبهم إلا بعد أن يبعث إليهم رسولاً ينذرهم بعذاب الله، ولعلّ قول الطباطبائي في الأمم الخالية مرشد إلى أمر ما فيما يتعلق بحاضر ومستقبل الأمم، وهذا ما سنلحظه في خاتمة هذا البحث..

انظر: الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية، م. س، ص٨٦. وقا: مع الطباطبائي، الميزان، ج١٣، ص٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

يذهب إليه اليزدي[1]، في حين أن إجماع المفسرين، بل أكثر المفسرين يأخذون بالسياق التشريعي لكونه متعلقاً بأمر الله ونهيه الذي جاء به الرسول، والإنسان يملك إرادة واختيار أن يكون مؤمناً، أو كافراً، ويبقى على العلاّمة اليزدي أن يفسّر لنا المعنى الذي ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي في سياق التدليل على كل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، باعتبار أنه بمجرّد أن نتحدّث عن الأمر التكويني، فإنّه لا بدّ أن نلحظ ما قاله السيّد الطباطبائي: «**وأما الأمر التكويني فعدم تعلّقه بالمعصية من حيث أنها معصية أوضح لجعله الفعل ضرورياً يبطل معه تعلّقه باختيار الإنسان، ولا معصية مع عدم الاختيار..**»[3].

لقد رأى العلاّمة اليزدي أن الله تعالى هو الذي جعل هذا النظام وأوجد المترفين... وقد تعلّق الأمر التكويني بهذا الجعل، وهذا ما ترشد إليه الآية المباركة لجهة تعلّق إرادة الله تعالى بأن يقوم المترفون بالفسق[4]. ولا شكَّ في أنّ هذا ما ناقشه العلاّمة الطباطبائي في تفسيره، مؤكّداً على ضرورة التمييز بين الإرادة

---

(١) يسوّغ اليزدي تفسيره للآية بقوله: «تلاحظون في هذه الآية أنه ينسب هلاك المترفين وفسقهم الذي كان مقدمة لهلاكهم إلى الإرادة والأمر الإلهي... بمعنى أنه لا يعدّ هذا الأمر خارجاً عن نطاق الإرادة والأمر التكويني، فهو نظام قد جعله الله وليس فيه ما يؤدّي إلى إجبار الأفراد، ونظير الآية التي نحن بصددها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ ...﴾ فهذا جعل تكويني مثل الجعل في قوله تعالى: ﴿نَبِيّٖ عَدُوّٗا﴾. هذا مذهب في التفسير، وإن كان مرتكزاً إلى أن شيئاً لا يحدث من خارج إرادة الله تعالى، إلاّ أنه يؤدي إلى محظورات كثيرة لكون المرتكز في تحقيق العذاب هو مخالفة الأمر وتكذيب الرسل وما جاؤوا به، ولو أن البيان النبوي لم يأت لما كان معلوماً أن يتحقق العذاب لقاعدة قبح العقاب بلا تبيان، وهذا ما خالف فيه الطباطبائي بأن الآية ليست مسوقة لبيان هذه القاعدة، لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾نفي لوقوع العذاب لا لجوازه...
را: الميزان، ج١٣، ص٥٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٣، ص٦٠.

(٤) اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، م. س، ج٤، ص٢٦٩ – ٢٧٠.

والأمر الإلهيَّيْن، على اعتبار أن الإرادة التكوينية تتعلّق بأن يريد الله تعالى بالذات أن يفعل فعلاً خاصاً كالإحياء والإماتة وإنبات النبات... أما الإرادة التشريعية، فهي إنّما تتعلّق بفعل الغير بأن يفعل أو يترك، من ظلمٍ أو عدل، بحيث يكون للإنسان اختياره في ما يريد فعله أو تركه. وهذا ما ذهب إليه العلاّمة الآملي في فهم الأمر والإرادة، إذ هو يميّز بين أن يكون الله تعالى مُريداً أو آمراً كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾الذي هو ليس أمراً وإنّما هو خطاب إيجاد لا صوت فيه ولا نداء[1].

وفي هذا الخطاب التكويني، كما يرى الآملي، لا يميز بين الأمر والإرادة والمشيئة، الذي يستحيل معه العصيان والامتناع، لأنّ الموجودات كلها أسلمت لله ربِّ العالمين.

إنّ الأمر التشريعي يختلف عن الأمر التكويني في كونه متعلقاً بمتن القانون والحكم، لا بنفس الفعل الخارجي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾إذ إنّ هذا الأمر الإلهي يمكن أن يُطاع ويمكن أن يُعصى، كما قال تعالى: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا ﴾[2].

وبناءً على هذا، فإنّه يكون معنى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾، هو أمر بالطاعة وليس بالفسق، والإرادة هنا ليست متعلّقة بفعل بالذات، بل بفعل الغير، ما يعني أنها إرادة تشريعية يُحفظ فيها اختيار الإنسان بحيث يكون قادراً على الاختيار بين الإيمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية، وهذا ما يمكن لحاظه من الآيات المباركة، التي ميّزت

(١) يقول العلاّمة الآملي: «إنّ الإرادة التكوينية يترتّب عليها لزوم تحقّق المراد وامتناع تخلّفه، وكون المخاطب تابعاً للخطاب في الوجود... فهو خطاب الإيجاد لا التكلّم اللفظي، لأنّ الأشياء بإرادته دون أمره مؤتمرةً، ولأنّها بكراهته دون نهيه منزجرة، فلا لفظ، ولا صوت، ولا نداء، وما إلى ذلك، بل إنّما هو إفاضة الوجود على ما هو المعلوم في الحضرة العلمية مما يقتضي الظهور دون غيره مما لا يستدعيه ولا يصلح له، وهذا القسم من الأمر والإرادة والمشيئة هو الذي لا مردَّ له ويُمتنع العصيان فيه...»
انظر: آملي، جوادي، علي بن موسى الرضا والقرآن الحكيم، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٢٢ ـ ١٢٤.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٨.

بين الإرادة التي لا يتخلّف فيها المراد، كما في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وبين الإرادة التي لا تقتضي وجود المراد حتماً كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾، التي تفيد الإرادة التشريعية.

وعليه، فإنّ ما يراه العلاّمة اليزدي لا يخرج عن كونه ملحوظاً في دائرة الإذن التكويني لكل أمرٍ وفعل، سواء في عالم التكوين، أم في عالم التشريع، وهو الإذن الذي ينتزعه العقل انتزاعاً، على حدّ تعبير العلاّمة اليزدي، لاستحالة أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة لشيء.

إذا كان هذا هو جوهر ما يذهب إليه العلاّمة اليزدي، فلا مشاحة فيما ذهب إليه من متعلقات الأمر والإرادة، لأنّه ما من شيءٍ في هذا الوجود يخرج عن إرادة الله تعالى. أما إذا كان مراده إخراج الأمر عن كونه أمراً بالطاعة لتلافي كون متعلّق الإرادة هو فعل الشرّ، والإفساد في الأرض فذلك ما أجاب عليه العلاّمة الآملي، بقوله: «**فإذا تبيّن أن لله تعالى إرادتين، وأنّ لكل واحدة منهما حكماً يختصّ بها، وأنّ الإيمان مأمور به ومراد بالأمر والإرادة التشريعية، وأنّ الشرك منهيٌّ عنه ومكروه بالكراهة التشريعية، فإنّ هذه الإرادة تقبل العصيان والتحدّي إلى أمدٍ قصير، في حين أنّ الإرادة التكوينية لا تقبل المعصية ليس إلاّ...**»[1].

إنّ ما ذهب إليه العلاّمة اليزدي يحتاج إلى مزيدٍ من البحث والتحقيق لئلاّ يُفهم من الإذن التكويني عدم التمييز بين الإرادة بما هي مشيئة وأمر ومتعلّقة بفعل يريده الله تعالى تكويناً، وبين الإرادة المتعلّقة بفعل الغير وما يكون له من اختيار في دائرة الفعل والترك، باعتبار أن الآية المباركة: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾، كما بيَّن الطباطبائي، تلحظ الأمر للمترفين بما هو أمر متعلّق بالطاعة يمكن أن يُطاع ويمكن أن يُعصى،

(١) را: آملي، جوادي، م. ع، ص١٢٢.

ولا تلحظ الإرادة والأمر بما هو خطاب إيجاد لأنّ الأشياء بإرادته دون أمره مؤتمرة، ولأنها بكراهته دون نهيه منزجرة، كما بيّن العلاّمة الآملي في بحوثه القرآنية.

غاية القول: إن هذا المبحث هو من المباحث الشائكة عند المفسرين، ولكن هناك من المفسرين مَن رأى أن في آراء القوم ما لا لزوم له فيما ذهبوا إليه من مباحث في اللغة والدلالة والفصاحة والبلاغة، وكأن القرآن غير مبين ويحتاج إلى تبيان من غيره بالرغم أن الآية، كما يرى العلاّمة مغنية، لا تحتاج إلى هذه الفلسفات، كونها واضحة لا لبس فيها، فهو يرى أن الراجح في الأقوال، هو أن الله تعالى أطلق كلمة المترفين على جميع أهل القرية، من باب استعمال الجزء في الكل، ومثل هذا الاستعمال كثير في كلام العرب إذا كان الجزء عضواً رئيسياً في الكل، كالعين بالنسبة إلى جسم الإنسان، فقد استعملوها في طليعة الجيش، لأنّ للعين مزيّة على سائر أعضاء الجسم، ولما كان المترفون أقدر وأسرع إلى الفسق، وأجرأ على المعصية من غيرهم، وهم في الوقت عينه متبوعون تقلدهم العامة فيما يفسدون، فلما كان كذلك، صحّ إطلاق كلمة المترفين على جميع أهل القرية...»[1].

هذا ما رجّحه العلاّمة مغنية، وقد ذكرنا في مباحثنا السابقة، أن الإنسان المترف كما استعمل في اللغة لا يفيد أنه شخص معيّن كقائد الشر أو الإنسان المتبوع، وإنّما يُفيد التابع والمتبوع وكل مَن هو متروك يصنع ما يشاء ولا حدّ لتنعّمه وطغيانه. وعليه، فإنه لا يبقى لجدال المفسرين ما يسوّغه، طالما أن المعنى واضح للآية لجهة ما جاءت فيه من سياق وعطف وتلاحق لتؤكد على أن المترفين فيما لو خالفوا أمر الرسول، واتبعوا الأهواء، وفسقوا بما يؤدي بهم إلى الكفر بنعم الله تعالى، فلا بدّ أن يحقّ القول عليهم ويدمّروا تدميراً، وقد سبق أن دمّر أقوام من بعد نوح بما عصوا وكانوا يعتدون، وهذا ما أعقب الآية للتدليل على اختيار الإنسان بإرادته فيما يصدر

(١) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، ج٥، ص٣١.

عنه من فعل أو قول، أما أن نقول بأن النظام الأحسن يقتضي وجود الناس للامتحان والاختبار، وأن المترفين ينشغلون بالفسق والفجور في عالم التكوين، كما أفاد اليزدي، فإن هذا من شأنه أن يلحظ ما شرّعه الله تعالى في دائرة التكوين، ويكون مقتضى هذا الجعل التكويني بمثابة التأسيس لوعي حركة النبوات في التاريخ الإنساني، بدءاً من آدم عليه السلام وانتهاءً برسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن نرى أنه لا شيء في هذا العالم يخرج عن إرادة الله تعالى، وكل ما في هذا الوجود متعلق بها بما في ذلك فسق المترفين، كما يرى العلاّمة اليزدي فيما انتزعه العقل من إذن إلهي، واستحالة أن يكون الله تعالى مغلوباً لعامل آخر، ولكن الإشكالية لا تكمن هنا، وإنّما في كيفية تحقق هذا الجعل التكويني الذي قضى بأن يكون لكل نبي عدواً من المجرمين على النحو الذي يفهم منه مسؤولية هؤلاء عن أعمالهم[1]، وطالما أن الكلام هو في متعلق الإرادة، فقد بينّا أن الإرادة، كما بيّن الراغب، لا تقتضي وجود المراد لا محالة،... ولولا أن الأمور كلها موقوفة على مشيئة الله تعالى، وأن أفعالنا متعلقة بها وموقوفة عليها لما أجمع الناس على تعليق الاستثناء به في جميع أفعالنا، نحو قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ..﴾، سواء قلنا أنه متعلق بالإرادة التكوينية، أم بالإرادة التشريعية، فإن شيئاً لا يتحقق من خارج هذا التعلق، لأنّ الإنسان إن فعل الخير أعانه الله عليه، وإن إرادة الله تعالى لا بدّ أن تتعلق بهذا الفعل، وإن فعل الشر، فإن الله تعالى لم يعنهُ عليه، وكان له ما أراده دون أن يعني ذلك أنه غير متعلق بإرادة الله تعالى، باعتبار أن كل فعل متعلق بإرادته وموقوف عليها،

(١) خلاصة الرأي عند اليزدي، هو أننا نستفيد من الآيات والروايات أن جميع ما في الوجود قد تعلق به الإذن والمشيئة والإرادة التكوينية الإلهية، أما بالنسبة للإنسان والمخلوقات التي تتميّز بالأفعال الاختيارية مثله، فإن الإذن والإرادة والمشيئة والإرادة التشريعية أيضاً تجري بشأنها وتتعلق بأفعالها الحسنة.. أما الأفعال المحرّمة، فلها إذن تكويني، كما سبق وذكرنا، لكنها محرومة من الإذن التشريعي. هذا كلام اليزدي. را: معارف القرآن، م. س، ج١ و٢، ص٢٦١، ٢٦٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

دون أن يكون الإنسان مكرهاً أو ملجئاً لهذا الفعل، وفي جميع الأحوال يبقى القول بالأمر التشريعي هو أصوب الأقوال لما يفيده السياق بأن المؤاخذة الدنيوية بعذاب الاستئصال تتوقف على بعث الرسول بعناية من الله تعالى لا بحكم عقلي يحيل هذا النوع من المؤاخذة قبل مبعث الرسول، كما أفاد العلاّمة الطباطبائي في تفسيره[1].

إذ ليس الأمر كما ذهب إليه اليزدي بأن الدافع إلى القول بالأمر التشريعي هو أن يلزم عنه أنّ أمر الله تعالى لا بدّ أن يتعلق بفعل الخير، بحيث تؤول الآية بقولنا: أمرنا مترفيها ليعدِلُوا أو يطيعوا، وإنّما المقصود، هو الأمر التكويني، أي إنّ إرادة الله تعلقت بأن يقوم المترفون بالفسق، وذلك نظراً لما تقدم الكلام فيه بأن الآية: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا .. ﴾، ليست إرادة مقصودة بحقيقة معنى الإرادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾، ولكنه لم ينقضّ، وإرادة الله تعالى لو تعلقت به على نحو إرادة التكوين لما تخلّف لاستحالة تخلّف المراد عن الإرادة، إلاّ أن يراد كما بيّن العلاّمة الطباطبائي الإرادة الفعلية لجهة تحقق الأسباب الموافقة وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية[2]، وهذا مؤداه تعلق الأمر بالطاعة بحقيقة معناه، بأن يتحقق العذاب والاستئصال بناءً لفروع البيان النبوي، الذي لا تتم الحجة فيها بمجرّد العقل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾. وعليه، فإنّ العذاب المحتوم للمترفين لا يكون إلاّ بعد البيان النبوي ومخالفته بالمعصية والكفر، وهذا من السنن الحاكمة في ميدان التاريخ، لقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾، وإن كل أمة من الأمم تخالف مقتضيات السنن الحاكمة، وتعصي البيان النبوي وتخرج عليه بالمعصية والكفر، فلا بدّ أن تؤاخذ بالعقوبة، وأن يلحق بها الفناء والهلاك والتدمير، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[3].

(١) الطباطبائي، م. س، ج١٣، ص٥٩ - ٦٠.
(٢) م.ع، ص٦٠.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

خاتمة المبحث

الأمة الإسلامية بين الترف والعذاب

لقد تجلّت رحمة الله تعالى فيما أرشد إليه الإنسان من بيان يخرجه من الظلمات إلى النور، وينجّيه من العذاب الأليم، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، لكن السؤال الذي يطرح ويمثل إشكالية في البحوث الإسلامية، هو: هل للسنن الحاكمة قيود تمنع من تحققها بنحو من الأنحاء؟ أم أن هذه السنن لها خاصيّة الثبات؟ ولماذا رأى العلاّمة الطباطبائي، أن النفي دالّ على الاستمرار في الماضي الظاهر أنه كان سنّة إلهيّة في الأمم الخالية؟

هناك أسئلة كثيرة يمكن للإنسان أن يجعلها مثاراً للنقاش، لكن الذي يعنينا مما عرضنا له في بحوث هذا الكتاب، هو الكلام، بما نراه وجهة نظر، في عذاب الاستئصال لأمة من الأمم، وقد سبق أن عرضنا لعذابات الأمم بما أحدثته لنفسها من تحولات صعبة نتيجة الكفر والعصيان بعد بيان النبوة لها، وهنا نعود للسؤال، هل الأمة الإسلامية هي بمنأى عن هذا العذاب؟ وما هو مفاد الأجل المسمّى الذي أشار إليه العلاّمة الطباطبائي بقوله: «**إنّ الرسالة منصب خاص إلهي يستعقب الحكم الفصل في الأمة إما بعذاب الاستئصال، وإما بالتمتع في الحياة إلى أجل مسمّى، كما قال تعالى:** ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، **وقال:** ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾[2]، **فالتعبير بالرسول لإفادة أن**

(١) سورة يونس، الآية: ٤٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

المراد نفي التعذيب الدنيوي، دون التعذيب الأخروي، أو مطلق التعذيب»[1].

كما يمكن لأي باحث أيضاً أن يسأل عن مفاد وظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

لا شكّ في أن الأمة الإسلامية ليست استثناءً من الأمم فيما يمكن أن يعرض لها من تحولات وعذاب، فهي أمة لها أجل مسمّى، تماماً كما لكل فرد أجله، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

ثمّ إنّ ما جرى في تاريخ الأمم والشعوب، هو تحقق السنن بلحوق العذاب بأقوام الفراعنة، وعاد وثمود، وقوم لوط، وقارون بعد أن جاءهم الأنبياء والرسل بالوعد والوعيد، ولكنهم فسقوا وتجاوزوا مرحلة الأمر والنهي، إلى الفسق، إلى مرحلة استحقاق المجازاة وصولاً إلى مرحلة الهلاك على حسب ما جاء به مكارم الشيرازي من تفصيل استفاده من المراحل الأربعة المعطوفة على بعضها البعض بواسطة «**فاء**» التفريع[4]، ما يعني أن كل أمة لها هذا التحقق فيما لو سلكت هذه المراحل، وعاندت النبوة، ولعل ما أفاده الصدر في السنن التاريخية أوضح مما ذكره آخرون لجهة ربطه بين أمرين، بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع، وبين دمار ذلك المجتمع، باعتبار أن قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا..﴾يستبطن سنّة تاريخية بلغة القضية الشرطية، وهذه السنّة ثابتة تجري على اللاحقين، كما جرت على الأمم الخالية، والأمة الإسلامية هي من الأمم التي تشملها هذه السنّة، لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[5].

---

(١) الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٣، م. س، ص٥٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٤) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل، م. س، ج٧، ص٢٥٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

إنّ ظاهر الآية يكشف أن الأمة الإسلامية ليست مستثناة من السنن التاريخية؛ ولكنها خصّت بأمانين في الأرض يرفعان العذاب عنها، وهما الرسولﷺ، والاستغفار، ما يعني أن الأمة يمكن أن تكون بمنجاة من العذاب فيما لو أخذت بما جاء به الرسولﷺ وأطاعت أمر الله تعالى، أو لاذت بالاستغفار كسبيل إلى النجاة من العذاب، وقد قيل، كما جاء في بعض التفاسير، أن النبيﷺ كان أماناً للأمة، وسيبقى أماناً لها من العذاب، فلا تُصاب بالاستئصال والإبادة الشاملة، لأنّ ظاهر الآية هو أن الرسولﷺ أمان للأمة في حياته. أما بعد وفاته، فإنّ فضيلة الاستغفار هي السبيل لمنع العذاب، أو الإبادة، فإذا لم تستغفر الأمة، فلن يكون لها منجاة من العذاب، وهنا يبرز السؤال الإشكالية، هل الأمة بعد وفاة الرسولﷺ استغفرت وقامت بمقتضى هذا الاستغفار الذي يعادل ويوازي حقيقة الالتزام بما جاء به الرسول من عند ربّه؟ أم أن هذه الأمة لم تستغفر ومحكومة لأجل مسمّى رغم كل ما هي عليه من بلاءات وتحولات جاهلية، بل إنّ ما يذهب إليه البعض في مجال المقارنة بين ما كانت عليه حياة الناس في مكّة قبل الإسلام، وما هم عليه اليوم، فلا يكاد يجد فرقاً بين الجاهلية الأولى التي ذكرها القرآن، وبين الجاهلية الثانية أو الثالثة، ولعلّنا أصبحنا اليوم في حال من الجاهلية تلتقي في كثير من تفاصيلها مع الجاهليات التي استؤصلت، لأن أحداً لا يستطيع أن يجزم بأن الأمة الإسلامية في تاريخها قد نجت بسبب استغفارها، أو طاعتها لرسولها.

والحق يقال: إن الأجل المسمّى المضروب للأمم عِلمهُ عند الله تعالى، هذا أولاً.

ثانياً: إنّ قوم لوط لم يهلكوا حين كان النبي لوط بين ظهرانيهم، وهم إنّما حصل لهم العذاب بالاستئصال بعد أن خرج النبي من وسطهم إلاّ امرأته فكانت من الغابرين... وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على مدى الرحمة الإلهية للإنسان. فكيف بمن جُعل رحمة للعالمين، وخصّ أمته بالأئمة المعصومين؟

ثالثاً: إنّ الأمة الإسلامية لم تخلُ يوماً من التحولات التاريخية والإيمانية

التي تمنع عنها عذاب الاستئصال، كما وأن هذه الأمة قد خصّت كما يرى علماء المسلمين بالأئمة الذين هم خلفاء للرسول، وهم يشكّلون ضماناً للأمة كيما يتحقق لها هذا العذاب، كما قال السيوطي: «**لا يزال هذا الدين متيناً إلى اثني عشر إماماً كلهم من قريش...**»[1].

ثم إن سياق التحول التاريخي، والسنن الحاكمة، تقتضي أن يكون لهذه الأمة تميزاً خاصاً لكونها خير أمة أخرجت للناس، ناهيك عن تميّز آخر في كون الرسولﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين، وهذا التميّز لا بدّ أن يكون له خصوصية في التحول التاريخي للأمة، وقد لا نبالغ بالقول: إنّ ما تميّزت به الأمة من خصوصية، هو أن الحجّة في الأرض قائمة، وهي امتداد لرسول اللهﷺ، فإذا ما تحقق عذاب الاستئصال لهذه الأمة بما كسبته من تحولاتها السياسية والاجتماعية والدينية، فإن ذلك لا يُبقي أي معنى لتواصل الإمامة كما جاء في الحديث النبوي، هذا فضلاً عمّا يقتضيه الأجل المسمّى الذي قد يستفاد منه حضور الحجة فعلياً لتحقيق الاختبار المطلوب، سواء لجهة الحضور، أم لجهة الاستغفار، لأنه لا مانع عقلي أو شرعي أن نفترض أن الأجل المسمّى للأمة الإسلامية، الذي علمه عند الله تعالى، هو استيفاء حركة النبوّة في الواقع البشري، تماماً كما كانت كل الأمم السالفة تستوفي أجلها بحسب ما أُعدّ لها من خطوات ومراحل وأئمة يهدونها إلى سبيل الرشاد، وقد قال الإمام علي عليه السلام: إن الأرض لا تخلو لله تعالى من حجّة إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مستوراً...»[2].

رابعاً: لا ينبغي لمتأمل بصير أن يسها، أو يتجاهل أن الرسولﷺ هو رحمة للعالمين، وبعث للناس كافة، ومقتضى هذه الرحمة أن لا يكون الاستئصال عاماً

(١) السيوطي، جلال الدين، منشورات الرضا، طهران، (ت ٩١١هـ) ١٤١١هـ، ص١٠. يذكر السيوطي عن ابن مسعود أنه سئل كم يملك هذه الأمة من خليفة، قال: سألت عنها رسول اللهﷺ، فقالﷺ: اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٤٧.

وشاملاً للأمة فيما لو عصت وفسقت في الأرض، هذا فضلاً عن أنه لم يسبق لهذه الأمة أن حققت جاهليتها على النحو الذي يجعل منها مستحقة لعذاب الاستئصال، بدليل أنه ما من مرحلة أو حقبة تاريخية إلاّ وكانت تشهد ثورة، أو حركة إصلاحية تمنع المترفين من أن يدفعوا بالأمة إلى مزالق الخطر والإبادة، وهذا لا يتنافى مع قولنا بأن هناك جاهليات كثيرة قد تحققت في حياة الأمة الإسلامية، بل نؤكّد عليه مع فارق أنه لم يسمح لهذه الجاهليات وما أفرزته من مترفين أن تتهدّد عقيدة وشريعة الإسلام، كما جرى في عام الستين للهجرة حينما حاول بعض حكام الأمويين أن يعيد سيرته الأولى كأن لا نبي جاء ولا وحي نزل، ولكنه لم يفلح لأنّ ثورة كربلاء منعت منه وسجّلت فتحاً مبيناً في تاريخ الأمة[1]، وبحق نقول: إنّ الذي منع الاستئصال عن هذه الأمة هو هذه الثورة، لأنها أبقت على الإسلام في حياة الناس وشكّلت امتداداً حقيقياً لرسول الله ورسالته، وستبقى كذلك إلى أن يمنّ الله تعالى على هذه الأمة بمن يخرجها من الظلمات إلى النور على مستوى التحولات التاريخية بحيث يكون لها فعلاً وحقيقة ما خصّها الله تعالى به من خيرية وشهادة ووسطية..!!

(١) إنّ التدافع في الأمة شكّل حماية لعدم استئصال الأمة وإفساد الأرض، وهنا تكمن أهمية ثورة كربلاء حيث إنها لم تسمح بدروس الدين وهدم البيع، والصوامع والمساجد، فإذا قلنا: إنّ هناك أجلاً مسمّى للمجتمع في الحياة، كذلك يصحّ القول إنّ هناك أجلاً لمن يبعث الحياة ويصلح في الأرض ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فالسنن التاريخية عاملة وثابتة، وقد جعل الله لكل أجل كتاب، حيث وعد المؤمنون العاملون للصالحات أن يستخلفوا في الأرض، وهذا يُنبئ عن أن حركة النبوّة بكل امتداداتها لا تزال قائمة ومنذرة للأمة، وهذا ما يشكّل برأينا تعبيراً عن حقيقة أمان الاستغفار الذي أشارت إليه الآية المباركة، باعتبار أنه إذا كان قوم لوط لم يحقّ القول عليهم إلاّ بعد أن خرج لوط، فما بالكم بالأئمة والصالحين من عباد الله تعالى في واقع الأمة الإسلامية؛ فهل يُعقل أن تستأصل هذه الأمة ولمّا تستوفي أجلها بعد فيما يعود إلى معنى وحقيقة استغراق الإمامة في تاريخها؟!!

لقد أخبر رسول اللهﷺ عن حقيقة استيفاء الأجل، وما على المسلم إلاّ أن يكون مستغفراً ومنتظراً في صيرورة التحولات الإيمانية والتاريخية كيما يتحقق الوعد المنشود، ويتظهّر الحق الموعود...

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن حجر، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، (لا-ت).
- ابن رشد، فصل المقال،فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م.
- ابن قتيبة، الدينوري، تاريخ الخلفاء، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م.
- ابن كثير، لأبي الفداء الحافظ، قصص الأنبياء، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، مصر، (لا-ت).
- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، دار العالم الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩م.
- الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث، بيروت، (لا-ت).
- إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٨٣، ١٩٩٤م.
- آملي، جوادي، علي بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤م.
- أيّوب، سعيد، معالم الفتن، دار الكرام، بيروت، ١٩٩٣م.
- البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٢م.
- جعيط، هشام، الفتنة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٥م.
- حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م.

- الحلّي، أحمد بن فهد، عدة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق القمي، مكتبة الوجداني، قم، (لا-ت).
- الحلّي، الحسن بن يوسف، تحرير الأحكام، مؤسسة الصادق، قم، ١٤٢٠هـ.
- الدامغاني، الحسين بن محمد، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩م.
- الراغب، الأصفاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، (لا-ت).
- الراوندي، فضل الله، كتاب النوادر، دار الحديث، قم، (لا-ت).
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- سبحاني، جعفر، سيرة سيّد المرسلين، دار البيان العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- سبحاني، جعفر، المذاهب الإسلامية، دار الولاء، بيروت، ١٠٠٥م.
- السيوطي، الحافظ، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، منشورات الرضا، طهران، ١٤١١هـ.
- شبّر، عبد الله، تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٩م.
- شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين، المؤسسة الدولية، بيروت، ١٩٩٦م.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، دار صعب، بيروت، ١٩٨٦م.
- الشيرازي، محمد الحسيني، تقريب القرآن إلى الأذهان، دار العلوم، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، دار النصر، بيروت، ١٩٩٤م.

- الصدر، محمد باقر، التفسير الموضوعي، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٩م.
- الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٣م.
- الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٩م.
- الصدوق، محمد بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٣هـ.
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م.
- الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١م.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٥هـ.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الهاشمي، بيروت، ١٤٢٥هـ.
- الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، دار المرتضوي، طهران، ١٤١٧هـ.
- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩١م.
- عامر، توفيق، مدخل إلى علم التفسير، دار البيان العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- العسكري، مرتضى، معالم المدرستين، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، طهران، ١٤٢٤هـ.
- القالي، أبو علي، الأمالي والنوادر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (لا-ت).
- القشعمي، محمد صالح، الإلهيات والفلسفة العليا، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٩م.
- قطب، محمد، كيف نكتب التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢م.
- الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٦هـ.

- كاظم، دشتي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء، بيروت، ١٨٨٦م.
- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- مرتضى العاملي، جعفر، الإمام الحسن عليه السلام، دار السيرة، بيروت، ١٩٩٤م.
- المشهدي القمي، محمد رضا، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، طهران، ١٩٩١م.
- مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨م.
- المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٠م.
- مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
- مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
- المفيد، محمد بن محمد، تصحيح اعتقادات الإمامية، إيران، قم، ١٤٠٤هـ.
- النباطي العاملي، علي بن محمد بن يونس، الصراط المستقيم، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٤٢٦هـ.
- النيسابوري فتال، محمد بن أحمد، روضة الواعظيم، وبصيرة المتعظين، منشورات الرضا، ١٤١١هـ.
- الهاشمي، محمود، مقالات فقهية، مؤسسة الغدير، بيروت، ١٩٩٩م.
- هارون، عبد السلام، سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، الكويت، ١٩٨٤م.
- اليزدي، محمد تقي المصباح، معارف القرآن، بيروت، ١٩٨٩م.
- يوسف، محمد، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة (لا-ت).
- موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، معهد تحقيقات باقر العلوم، ١٤١٥هـ.

أنجز هذا الكتاب يوم مولد السيدة زينب عليها السلام

الواقع في ٥ جمادي الأولى/١٤٣٥ هـ.

الشيخ عارف هنديجاني فرد

الفهرس

الإهداء ٥

تمهيد البحث ٧

الفصل الأول: الترف والمترفون: المفهوم والدلالة ١٣

تمهيد الفصل ١٥

المبحث الأول: الترف في اللغة ١٧

المبحث الثاني: مفهوم الترف ودلالاته ١٨

المبحث الثالث: الترف والمترفون في القرآن: ٢١

الفصل الثاني: المترفون وصناعة الفساد ٦١

تمهيد الفصل ٦٣

المبحث الأول: أنواع الترف والفساد ٦٧

المبحث الثاني: أنواع الترف والفساد ٨٢

المبحث الثالث: المترفون وصناعة الفساد ١٠٧

الفصل الثالث: المترفون والمصير المشؤوم ١٢٩

تمهيد الفصل ١٣١

المبحث الأول: وعد الله وحاكمية السنن ١٣٢

المبحث الثاني: الامتحان بالبلاء وموت الأمم ١٤٨

الأمة الإسلامية بين الترف والعذاب ١٦٩

خاتمة المبحث ١٦٩

المصادر والمراجع ١٧٥

الفهرس ١٧٩